

رواية

صمت الطواحين

يوسف أبوريّة

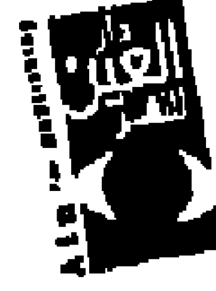
صمت الطواحين

صمت الطواحين

رواية

يوسف إبو رية

الطبعة الأولى ، ٢٠٠٧



دار العين للنشر
٩٧ كورنيش النيل ، روض الفرج ، القاهرة
تليفون: ٤٥٨٠٣٦٠ ، فاكس: ٤٥٨٠٩٥٥
E.mail: elainco2002@yahoo.com

الغلاف: أحمد اللبـاد

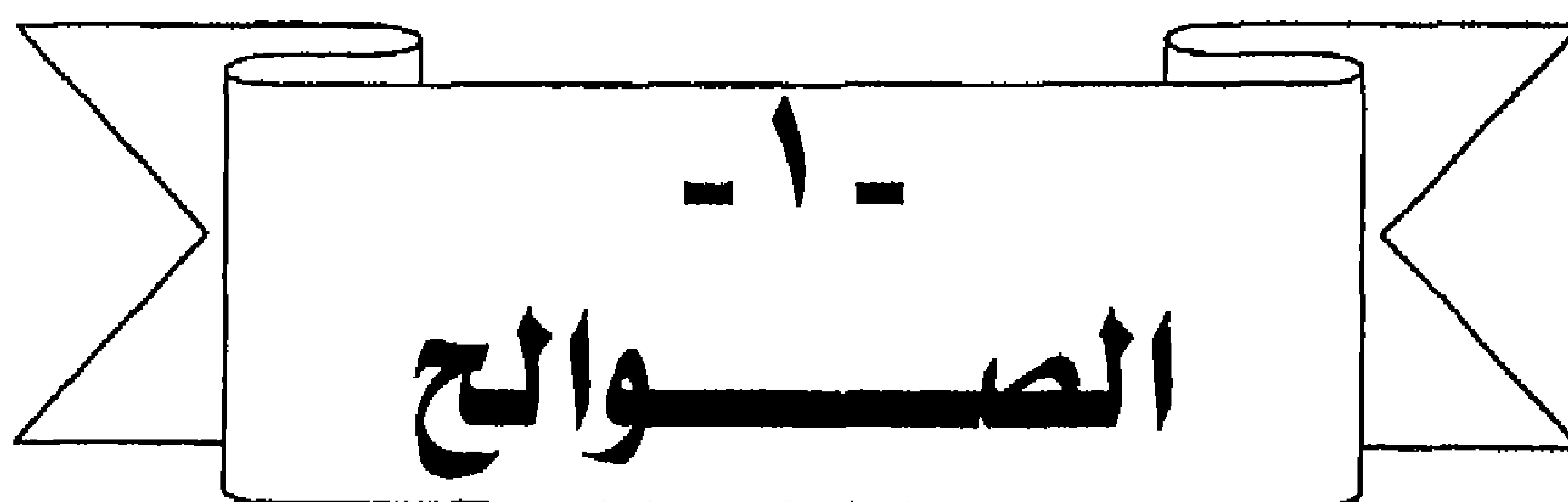
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٤٧٠٣ / ٢٠٠٦

صمت الطواحين

رواية

يوسف أبو ريّة

دار العين للنشر


- ١ -
الصـــوالح

« رؤيا أبو المعاطى »

قبل قدومه إلى هذه البلدة رأى – فيما يرى النائم – حجرًا ثقيلا يسقط على قلبه ، حاول الفرار منه ، لم يستطع أول الأمـر . كـان يثقل صدره ، ويعجزه عن ترديد النفس ، تحرك يمينًا ويسارًا فسقط الحجر بصوت مكتوم على الأرض الترابية .

ولكن ثعبانا بغيضًا برز منه ، حـدّق فيـه بكراهيـة ، حـاول التخلص منه بضربة حاسمة بقبضة يده ، بيْد أن الثعبان التف حول معصمه ؛ ثم زحف إلى عنقه ، وضغط عليه ، شعر بالاختناق مـرة أخرى ، حتى تمكن من الرأس الممتلئ بالسم ، وفصله عن الجسـد الطويل الذى همد وهو ينتفض فوق الحجر .

وأخيرًا رأى نورا ينبثق فجأة من نافذة أمامه ، وأطل منه وجـه جميل .

أشارت إليه ذات الوجه ليدنو، فدنا .

ألقت إليه رضيعًا يحاول التحرر من قماطـه ، بعـدها ، رمـت جسدها ، فاحتضنها ، واستدار خلفه ليرى حصانًا أبـيض يـنفض الهواء الساكن بجناحيْن عظيميْن ، قال له الحصان : اركب .

امتطى السرج المزخرف ، ومـد يـده إلـى المـرأة ، رفعـت رضيعها، ولملمت أطراف ثوبها الأبيض الخفيف .

انطلق الحصان بهما ..

يسير الهوينى بين حقول مزدهية بالخضرة اليانعة ، ينتصفان طريقًا مظللاً بأشجار تغرد أغصانها على الجانبين ، تهتز أوراقها لنسمة خفيفة ، لا يدرى مصدرها .

وفجأة ، حلّق الرضيع بجناحىّ ملاك صغير ، ودّع أمه باكيا ، وهى أشارت إليه بحسرة صائحة : السلام عليك يوم وُلدت ، ويوم تُبعث حيا .

اخترق سحابة بيضاء .

أخذها فى حضنه بعد أن سال دمعها مطرًا رقيقًا هينًا ، فرحت به الأرض والنبتة الذابلة من شدة العطش .

★★★

[دخل الليل]

وكم ليل دخل !! .

يسقط عليهم كقط متربص بفأر مذعور خلف الجدار . تتمدد ظلال الدور نحو الطاحونة ، ترتفع لتغطى المصطبة المقامة بأحجار جرانيتية قديمة .

هم لا يفارقون أمكنتهم تاركين الأبواب مفتوحة ، تهبط إلى الأسفل بدرجتيْن نحو القادوس المعدنى ، ونحو مضرب الأرز ذى الفوهة المغلقة بقطعة خيش .

يمر عليهم أهل البلدة فلا يلقون السلام ..

ينظرون إليهم بإهمال ساحبين ماشيتهم نحو الغيطان صباحًا . وعند العودة إلى البيوت فى مثل هذه الساعة .

حيث يقبع عليوة نحو حائط الميزان يرفع زجاج المصابيح ليمسحه بالسبابة من أسفل ، ويمرر أطراف إصبعه على جانبى سرواله المشبع بالسولار والجاز وهباب ماسورة العادم .

يضيف الجاز إلى المصابيح ..

ويسحب الشريط المحروق من اشتعال الأمس ، يجره بحرص إلى أعلى ليجدد طوله ، ويعاود مسح الزجاجات .

يترك المساحات العلوية سوداء ، ويكتفى بالجزء السفلى الذى يشيع ضوءًا باهتًا يكفى لكشف موضع الأقدام .

كان نور يرقبه متأهبا لإصدار الأوامر .

هو الأسطى الكبير، أوامره مكرورة ومعروفة سلفا .

– خذ واحدة وارفعها بالقرب من القادوس ، وخذ الثانية لمضرب الأرز ، وواحدة للعدة .

ويكرر عليوة سؤاله المسائى :

– ومكان النوم ؟

– سنأخذ واحدة حين يأمرنا الحاج بإغلاق الطاحونة .

الحاج (أبو المعاطى) يجلس إلى جوارهما لا يرفع عينيه عن النافذة المطلة على الساحة الأمامية .

هى – هناك – تهدهد رضيعها وترقب عودة الزوج .

قال الحاج :

– الآن سيأتون .

نهض نور وقد نفرت عضلات جسمه ، رفع ذراعيه إلى أعلى وإلى أسفل . ثم نفض طوله الرهيب .

وقف كمارد أسود هو الليل فى اكتماله .

– اليوم سأحسم الأمر .

قال الحاج :

– مصيرنا الليلة فى يدك إما أن نغلق الطاحونة ، وإما أن نستمر إلى الأبد .

الليل ظل يقترب منهم ، ويغلق عليهم الطـرق ، وعليـوة فـى عجلة من أمره ليحفظ للعين رؤية محدودة ، تسمح له بصعود السلم الخشبى الصاعد من حجرة العِدة إلى غرفـة النـوم علـى سـطح الطاحونة .

الساحة التى كانت تشتعل بشمس الظهيرة كبس عليها الظـلام ، وأقام كتلة حجرية ثقيلة . ثقيلة كحجر الطاحونة ، لا تبدو منها غير العمامة البيضاء للحاج ، وسلخة نور نحيلـة تسـقط مـن النافـذة المواجهة .

الوجه المعشوق اختفى بين أشياء الغرفة ، فالزوج عـاد ممـا دفع الخيالات المتأججة فى ذهن الحاج ، وسمحت للغيرة بالصـعود من موضعها الغامض فتضغط على حلقه .

ظلوا فى انتظارهم ..

حانت لحظة الرحيل ، أو البقاء الأبدى .

هل سيأتون كعادتهم ؟ بالتأكيد سيأتون . هذه سـاعة التسـلية المتاحة ، فى بلدة صغيرة ، لا لهو فيها . ولا تسرية .

بلدة لا تفتح أبوابها للمقاهى ، فقيرة الضـوء ، تفتقـد أعمـدة الإنارة ومصابيح الكهرباء .

مذياع وحيد عند العمدة ..

يلتفون حوله فى المناسبات ، وفى الأوقات العصيبة لمتابعة أخبار المعارك التى تقع فى المدن البعيدة .

يتناولون وجبة العشاء بعد العودة من الحقول ، الشباب يجتمع على جسر النهر فى الليالى القمرية البهيجة ، هذا يحدث فى الأيام الصيفية أثناء الإجازات المدرسية .

وفى غير هذا الوقت من العام يجتمعون فى ساحة الطاحونة .

لا يحفلون بأصحاب المكان ، هؤلاء الغرباء الذين قدموا من (الجزيرة) التى لا يكنون لها الكثير من الاحترام . نقل لهم الآباء عن الأجداد أنهم من أصول عربية عريقة ، قدموا مع الفاتحين الأوائل . مع الرسالة النبوية واللغة العربية التى نزلت بها آيات القرآن الكريم .

أما أهل تلك المدينة (الجزيرة) فمجرد فلاحين بؤساء لا طاقة لهم بأعمال الفروسية ، ولا عراقة لهم فى النسب والعرق « كنا نغزوهم فى العصور الأولى ، فلا يملكون الدفاع عن أنفسهم ولا عن أملاكهم . نعود بالغنائم وهم يكتفون بالاختفاء خلف أسوار عالية ، لا تحميهم من سيوفنا ونبالنا .

نسمع صريخ نسائهم وأطفالهم ، يستغيثون بالرجال يهددوننا عبر أصوات مذعورة ، تضيع فى الفضاء عبر لغة معوجة، عاجزة، لم تقومها آيات القرآن ؛ لأن لسانهم القديم أدخل عليها ، فلم يفلح فى استقامتها .... » .

ويهمل أبناء اليوم الذين تعلموا فى المدارس مادرسوا فى علوم التاريخ لينقلوا عن الآباء ما حفظوه عن الأجداد .

كان من الأجدر أن تظل بلدتنا عاصمة المكان ، فهى ملتقى الطرق الصحراوية الأولى التى تستقبل هجرات القبائل والجنود فى ذهابها إلى الفتوحات ، أو فى صد الغزوات القادمة من جهة الشرق .

غيّر الزمن الحديث – لعنة الله عليه – كل شىء ؛ فهو منسوب إلى مستحدثات الغرب التى أقحمت على بلادنا البريئة أشياء بدلت أحوالها .

جاءها بالبرق ، وسكك الحديد ، والهواتف ، والطواحين البخارية .

وانتقلت العاصمة إلى هناك – إلى (الجزيرة) التى جاء منها هؤلاء الأغراب – بسبب مرور خط القطار عليها ، فأسقطت أسوارها ، وانهارت أبراجها ، وتشبثت بالخط الحديدى الذى جلب موظفى الإدارة من القاهرة ، وصار لها مستشفى كبير ، ومدارس تنتقل من مرحلة إلى مرحلة حتى اُضطر أبناؤها لركوب المطايا فى قر الشتاء ولهيب الصيف ليلتحقوا بها .

وأقيمت المحكمة والوحدة الصحية والبيطرية والبنوك ، ودخلها الخواجة اليوناني لينشئ الطواحين ، والبارات ، والمقاهى النظيفة ... .

ثم هاهم يأتون إلينا .

ظل رجال المدينة الحاج أبو المعاطى والأسطى نور والصبى عليوة يواجهون نظرات العداء بصمت ، ويراهنون على الأيام .

ومرت الأيام والشهور ، لا شيء يتغير .

الطاحونة لا تستقبل زبونًا واحدًا ..

يقضون النهار تحت ظل الجدار ، يعصرون دموع التثاؤب والوخم عن عيونهم ، ويمكثون الليل فى الاضطجاع القلق .

أراد الحاج أن ينهى مشروعه بعد الأسبوع الثانى غير أن الوجه المطل من النافذة جعله يصمد .

كان يعرفها صبية من مدينتهم ، تزوجها أحد أبناء هذه البلدة ، حبسها فى غرفتها ، ولا يتردد عليها إلا أيامًا معدودات ، قسَّمها مع زوجته القديمة . هى إذن تعانى الوحدة مثلهم .

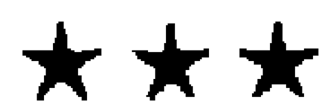
وغريبة تفرح بحضورهم ، فهم ونسها ، فى بلدة الغربة هذه .

هم الاستغاثة عند الضرورة ، كانت تتبدى وتختفى عبر النافذة المفتوحة ترفع رضيعها على يسارها ، وتفتح له قبة الجلباب البيتى تلقمه ثديا وفيرًا ، تستره بطرحة وجهها الخفيفة .

ونسى الحاج ملل الأيام ، ونسى نظرات العداء التى تواجهه فى كل مكان ، إنه يرعى حضورها بحذر حتى لا يتضاعف العداء . وهم على بدواتهم المتأصلة يلتقطون حنين الفروع للجذر ؛ فهى مثلهم تعيش معزولة لأنها لا تنتمى إليهم ، ولا لقيمهم ، ولا لعاداتهم . ليست لها صديقة من نسائهم ، ثم إنها – وقبل كل شىء – دخلت الدار على ضرة من عرقهم ، وللضرة أبناء كبار يرقبون الدار . ليل نهار. ويتحفزون لأصحاب الطاحونة الغرباء ، ولصاحبة البيت التى تنتمى إلى مدينتهم . إنهم – فى غرفهم – ينسبون إلى التحلل والخفة . فيما يتعلقون هم بالأخلاق الأصيلة ، كما تتمثل فى موروثهم الشفاهى المحدود .

قضوا جزءا من الليل حتى سمعوا أذان العشاء ينطلق من المسجد الوحيد بالبلدة؛ لقد اقتربت الساعة ، وحانت لحظة الحسم .

الحاج لم يرفع عينيه عن النافذة ، ونور لم يترك فرصة لمراقبة الشوارع الضيقة المؤدية إلى الطاحونة ، وعليوة انتهى من توزيع اللمبات بين الغرف الساكنة ، وعدة الطاحونة المصنوعة من المعدن الثقيل . وقفت بثقلها تعانى البرد والبطالة . إنها تئن طلبًا لدفء العمل والدوران .



[هل يرفع نور الحجر ؟]

حجر الطاحونة القديم والمطموس الخطوط التى تعمل كأسنان وحش جائع ملقى وسط الحوش المسوّر بالطوب اللبن .

حجر صوان يؤتى به كبضاعة من محاجر السبتية .

عندما امتلك الحاج الطاحونة استبدله بآخر جديد ليضاعف قوة الهرس للحب ، الذرة البيضاء ، والقمح الذهبى ، والحلبة الصفراء.

لم يجرب بعد ..

وكان يأمل أن يؤدى عمل الحجر الجديد إلى إشادة أهل البلدة ، كما عمل على تغيير الغرابيل المعدنية نصف الأسطوانية لمضرب الأرز .

ولم تجرب بعد ..

فهل إذا وفق نور فيما هو مقبل عليه سيدور الحجر ، وتضرب الغرابيل . وتقع المصالحة بينهم كغرباء وبين أهل البلدة فينسون أنه استولى على ملك أحدهم بالشراء ، وتدفعهم الضرورة للإقبال عليهم ؟

هل يظنون أنهم قادرون على العيش دون خبز وأرز ؟

إنهم آثروا الجهد على الراحة .. ينقلون طحينهم وأجولة الأرز إلى طواحين البلدات المجاورة .

يقضون اليوم بطوله ، ويعطلون حميرهم وجمالهم للتنقل . ويأبون التعامل مع هؤلاء الذين هبطوا عليهم من مدينة يعتقدون – كما رسخ فى أذهانهم من حكايات الأجداد – أنها نمت على حساب بلدتهم (الصوالح) . رفضوا التاريخ من أجل الخرافة .

فما العمل ؟

لابد من الدخول عليهم عبر خرافة جديدة .

إن نورًا هذا ليس بشرًا كما يبدو للعيان ، إنما هو من نسل المردة والشياطين الذين يقيمون تحت طبقات الأرض السفلية ، يخرجون عند الحاجة ليبرزوا للبشر قدراتهم المحدودة ، إنه ينتمى لأسلاف جلبوا من قلب إفريقيا .

لقد صمت طويلا وراح يتأمل محاولاتهم مُذ قدومه إلى بلدتهم ، ولا يتقدم نحوهم . يجتمعون على الحجر القديم ، يدخل الرجل تلو الرجل إليه يحاول رفعه إلى أعلى ، وتقام المراهنات. وتفشل محاولاتهم ليلة إثر ليلة .

يستجيب الحجر إذا تمكن منه أربعة رجال .

ينحنون على دائرته ، كل يمسك بجهة ، يقوم من رقاده تاركا أرضا رخوة ، تمور بالديدان والصراصير ، والخنافس . طين لين ، رطب يحقق لحشرات الأرض أمانها .

يتمكن الأربعة من رفع الحجر حتى الصدر ، ثم سرعان ما ترتعش السيقان ، وتنفر عروق الرقبة ، وتلتهب الأصداغ ، ويسيل العرق تحت الإبطين ، ومن جبهة الوجه ، فيتخلصون منه على عجل . يلقونه فى مكانه دفعة واحدة ، ينزل بصوت مكتوم مفارقا البقعة الرطبة ، فتهيج الحشرات ، وتسعى مذعورة إلى أرض الحوش .

يهلل الأولاد الصغار وهم يتابعونها ، يدوسونها بالأقدام الحافية، وينحنى عليها الرجال بنعالهم الثقيلة حتى لا تسعى إلى أبواب الدور القريبة .

البارحة ..

البارحة فقط ظل طه الغمراوى ، زوج المرأة المطلة من النافذة يتابع رفع الرجال للحجر من حجرته ، يصدر الأوامر .

- ارفع .

- ارفع يا خرع منك له ..

- والله أنزل ارفعه بإصبع واحد .

بعد أن تخلصوا من الكتلة الرهيبة نظروا إليه بتحدٍّ .

- تعال يا طه .. ورينا شطارتك .

أخذته الحماسة فجأة ..

- والله لانزل .

شدته المرأة من كُم جلبابه لتمنعه من النزول فأصـيب الحـاج بغُصة فى حلقه .خانفة عليه إذن . .

وظهر بطوله الفارد على باب الحوش .

– تعال ..

وقف رجال الطاحونة فوق المصطبة لينظروا إليه عبر أكتـاف الرجال الملتفين حوله .

أرادوا أن يعلقوا على ما يحدث ولكنهم آثروا الصمت ، ورجـال الطاحونة كانوا يتابعون اللعبة كأن الحجر لا يتبعهم .

يتجاهلونهم تماما كأطياف لا وجود لها ، أو كقطعة مـن ظـلام الجدار الذى يركنون إليه .

– إوعى يطق لك عرق .

قال أحد شيوخ البلدة ، وهو يرتكز على عصاه المعقوفة .

نظر الرجل إليه متحديًا ، ولأنه من الكبار لم يستطع الرد عليه . شمَّر كُم قميصه الأبيض ، وعقد طرفه حتى البطن ، ثم أدخله فـى حزام السروال الطويل .

انحنى على الحجر بعد أن أدخل أصابع اليد اليمنى فـى الفتحـة اليمنى ، وأدخل أصابع اليد اليسرى فى الفتحة اليسـرى . سـحب أحدهم شاله عن كتفه ، وصاح :

– يا هادى .

كانت زوجته فى النافذة تهدئ طفلها بيد متوترة قلقة .

تقطع مساحة النور جيئة وذهابًا ، تدخل إلى عمق الحجرة ثم تبرز بكامل وجهها المضئ فى الطرحة المزينة بورود صغيرة . والحاج انكسرت نظرته نحوها لائمًا نفسه بالانشغال بها . هبط من أعلى المصطبة ليدنو من حلقة الرجال ، وتبعه نور وعليوة مستأنسين به ، ولم يعرهم أهل البلدة أى اهتمام ، مجرد جمهور .

وهم فى توترهم ظلوا يصفقون على الأكف صفقات تذكر بماضيهم البدوى القديم . كيف ترسبت هذه الإيقاعات فى الذاكرة لتطل فى اللحظة المواتية ؟

داروا فى المكان حلقة صعَّدت التراب أسفل أقدامهم .

وهوَّم حتى ارتفع إلى أعلى .

على إيقاع الصفقات الموحدة قدم آخرون ، وامتزجت الأجساد لتنسى الفروق . وقفت المرأة إلى جوار الرجل الغريب ، وانبث الصغار بين السيقان . يدفسون رؤوسهم ليتمكنوا من المشاهدة .

. هل هو يوم عصيب .. أم رغبة فى خلق يوم مغاير لثبات أيامهم الراكدة ؟ . .

هكذا سأل نور نفسه .

لاحظ أن جسده تداخل مع جسد الرجل المتحدى للحجر ، وأحس كأنه هو . ماذا لو حدث له مثلما يحدث الآن أمام العيون المحدقة ؟

هل الحجر يملك كل هذا الثقل .. أم هم العاجزون ؟

سيحاول معه ، بعد أن ينتهى الرجل ؟

همس فى أذن الحاج .

– سأحاول إذا فشل الرجل ..

– بل ستحاول إذا نجح .

– سيكون تحصيل حاصل .

– بالعكس ، اصمت الآن .. الرجل وصل للحظة العزم .

وسمعت الصرخة المدوية .

دوّمت فى فضاء الحوش ، وارتفعت حتى صعدت فوق سطوح المنازل القريبة ، والبعيدة ، وراحت تتشكل كسحابة خفيفة هشة . سحابة وحيدة فى سماء سوداء تثقبها أضواء مرتعشة لنجوم عالية.

ثم هبطت الصرخة إلى صاحب المقام الراقد تحت جميزة عمرها يمتد إلى شيوخ القبائل الأوائل . عندما حطوا بخيامهم على هذه البقعة من الأرض الرملية التى ارتوت بماء نهر صغير يأخذ ماءه من نهر المدينة الواسع .

★★★

[ليلة أخرى]

تمكن طه الغمراوى من الحجر ورفعه على آخر مدى لذراعيه .. سيطر عليه تماما كأنما ضرب أصابع يديه فى عنق عدو .. كثيرا ما تحداه ، كان يطل عليه دومًا من نافذته ، يرفع جلسته فوق الكنبة بمسندين ثقيلين ، ويتابع أهل بلدته متحسرًا على فشلهم .

فكر فيه كثيرًا ..

ولكنه لم يقرر النزول إليه أبدًا ..

كان يخشى الفشل مثلهم ، نافذته مطلة على الحوش ، وزوجته القادمة من المدينة سترقبه ، لا يمكن النزول قبل التأكد من قدرته على رفعه ، انتصاره عليه هو مجابهة لتدللها عليه ، وتحديها لرجولته ، وهزيمته تعنى السقوط والخذلان .

لن تغفر له ، وستذله بانكساره أمام الحجر ، وعند احتدامهما معًا ستذكره بهوانه وعجزه عن رفع الكتلة الملقاة بين فضلات الدواب التى تحمل الحبَّ للطاحونة .

كيف سيعيد عليها ذكر تاريخ أجداده القدامى ؟

كيف يفخر بهم وبفروسيتهم التى تشيع فى دمه حتى بعد زوال عصر الخيول والسيوف التى غزوا بها مدينتها فى عصور سابقة ؟ هو يشمخ عليها ببداوته ، وهى تدل عليه بانتسابها إلى مدينة كبيرة تخترقها قطارات الحديد ، وتسعى فى شوارعها المسفلتة

سيارات من كل صنف ، وتعدد له العمارات والفيلات التى يسـكنها أعيان لهم زهو عظيم بامتلاكهم لأراض زراعية واسعة ، تقول له : عندنا المركز ومكاتب البريد والبنوك والوحدات الصحية والبيطرية. ماذا عندكم هنا فى قريتكم غير عُمدة فقير وخفراء مساكين ؟

هو الماضى وهى الحاضر إذن ..

فهل هذا مدعاة للصراع على الرغم من عشقه لهـا وللسـانها الذى يقطر عسلاً مصفى ؟

تشغفه بحسن مظهرها وخبرتها فى اختيار ملبسها ، ثم – وهو الأهم – بنسلها الجميل . هذا الولد الذى خطف منها حدة عينيهـا ، وبضاضة لحمها ، ونصوع جلدتها .

ثم ماذا يكون هو – فى النهاية – إذا كف عن ذكْـر الأولـين ؟ مجرد بائع للكيروسين ، افتتح دكانة صـغيرة تـزدحم بالبراميـل ، ومشبعة أرضها برائحة بضاعته التى يقبل عليها أهل بلدته مع أول النهار ومع قدوم الليل ليملأوا بها الوابورات للطهـى والمصـابيح للإضاءة .

يترك صبيه طيلة النهار ليسرح هو بعربته (الفنطاس) يجرهـا حمار تبرز عظام هيكله النحيل ، يدس بوزه فى كيس التبن ، ويتخذ موقعه على المقعد الأمامى ، يمدد ساقيه إلى أسفل ، ويدور علـى القرى المجاورة رافعًا عقيرته للإعلان عن بضاعته .

ويضرب بمفتاح الحديد على اسطوانة (الفنطاس) .

- جاز ...

يطلق صنبوره فى القسط ليملأ صفيحة الزبون ، ويعاود النداء فى قرية أخرى . ومن قرية إلى قرية ينقضى اليوم . ومع صفار الشمس يعود إليها .

يشطف جسده ولكنه لا يفلح - أبدًا - فى إزالة رائحة الكيروسين ، يتناول لقمته ثم يرفع المسندين إلى جانب الكنبة ليراقب لعبة الليل .

يقبل أهل البلدة على الحجر ، يطلق الصيحات المحذرة أو الناصحة كمدرب يدرك أكثر مما ينفذ ، ويتلوى جسده راغبًا فى النزول إليهم .

وتتابعه شهدة مشفقة عليه ، تهز فخذها لتهدهد طفلها الذى تربت على جسده بحنو لتجلب إليه النوم ، غير أن الولد يفزع لصرخات أبيه ، فيفيق من خلساته .

- أخفت الولد .

- لو أنا .. كنت لفعته مرة واحدة .

- لا نأخذ منك غير كلام .. أما الفعل .

- بُكرة تشوفى .

- احيينى النهارده .

- طب قومى من هنا لأدشدش القُلة على راسك .

ويعود إلى انكساره .

هذه المرأة تعيّرنى .. ربما لا تحفظ سرنا ، ولكن كيف وأنا أحبسها بين جدران البيت ؟ لا علاقة لها بنسوة (الصوالح) سرنا يخصنا . ومن يضمن هذا ؟ إذا أفلحت فيما فشل فيه رجال البلدة ، فاكسر عينها ، ولن تكون هناك فرصة للقيل والقال .. .

كان نزوله لتحدى الحجر . وتحدى الرجال ، وتحدى المرأة .

وفق . وتخلص من هذا الجلمود الذى أبهظ كتفيه ، وألقاه بعيدا خارج حلقة الرجال ، ونسى المتحلقون حوله انتصار ابن بلدتهم لينكفئوا على هذا الثعبان الذى سعى مذعورًا بينهم .

كان يرقد ملتفا على نفسه بين الفتحة العميقة فى منتصف الحجر ، عاش عمره فى سلام مطمئنا إلى بيت رآسخ من الحجر . انطلق بين الأقدام مادّا لسانه المشقوق يبخ السم فى الأنحاء ، والرجال تفرقوا بين أسوار الحوش ، حاولوا الإقدام عليه لدوسه بنعالهم . كان يفلت منهم ببراعة ، ألقوا عليه الطوب والأحجار المتناثرة على الأرض . لا فائدة ، خلعوا قوالب من طوب السور وحاولوا دق رأسه بها ، والثعبان يتلوى من جانب إلى جانب يريد الاختفاء فى أقرب جحر ، وبينما كان طه الغمراوى مشغولاً بالنظر إلى النافذة ليتابع وجه المرأة تصيح : خلى بالك .

ومال نور بطوله المهيب على رأس الثعبان ، كتم فمه المفتوح على آخره ، وبهدوء - من يمسك بسير الطلمبة الصغيرة التى تدفق الماء السخن فى مجرى البئر - عصر الرأس بقوة حتى تخلص الثعبان من السم الذى يملأ جوفه ، فصار رخوًا منتهك القوى كذكر مستنفد الشهوة ، وبإبهامه وسبابته أطبق على الحلق وسحبه بمخلبيْه الأسوديْن وملص رأس الثعبان ، وألقى به تحت قدميه ، ظل الجسد ينبض وحيدًا على الأرض ، ثم سكن تمامًا ، وركله كحبل لا رجاء منه .

عند نهاية المشهد ارتاحت القلوب ، وترددت الأنفاس بسكون ، واحتار الرجال : أيحتفون برجلهم أم بذلك الأسود الذى خلّصهم من عدو كان يهدد حياتهم وحياة أطفالهم إذا تسرب إلى الدور ؟

قال واحد منهم : شكرًا يا أخ ..

واستدار إلى طه ليرفعه على كتفه .

سار الرجال خلفه يهتفون ، ويصفقون ، بعد أن تخففوا من الشيلان البيضاء التى رفرفت على رؤوسهم ، وظلت شهدة تطل من نافذتها فى حيرة .

هل تحيى زوجها الذى وفق فى رفع الحجر .. أم تحيى ابن مدينتها، ولو كان من نسل العبيد ؟

أما الحاج أبو المعاطى فقد ألقى بيده مدة على كتف نور قائلاً وبسمة حائرة متجمدة على جانب شفتيه :

- كدا .. تمام .

ثم دفع عليوة نحو باب الطاحونة : أطفئ النور، وقفّل الأبواب .

وانعطف نحو باب العدة ليصعد الدرج الخشبى . كان يئن تحت قدميه كما يئن قلبه بين ضلوعه ، قبل أن يدخل الغرفة ألقى نظرة على النافذة المفتوحة ، رآها وهى تغلق ضلفتيها ، فقال : ها هو الليل الحقيقى يبدأ .

وظلت عيناه معلقتيْن بالبصيص الذى يتسرب من بين الألواح . نفث تنهدة عميقة ..

. هل يهنأ طه بليلة انتصاره ؟ " .

وشعر بأنياب الغيرة تخنق حنجرته ، ثم أفاق على أنين الدرج تحت أقدام نور الذى صعد إليه ثم بعدها أنين أخف لأقدام عليوة الذى دخل الغرفة بزيه الملطخ ببقع السولار ، تفوح من سترته رائحة الشحم والكيروسين ممتزجة برائحة طحين قديم ثبت فى مسامها مُذ خدمته فى طاحونة المدينة .

قال له أبو المعاطى : غيِّر هدومك ، واغسل يدك وجهز لنا العشاء .

بعد أن تناول عشاءه لم يستطع النوم ، ظل بقميصه الأبيض وبرأسه الحسير يتردد ما بين الغرفة والفراش . يقف متخفيًا فى ظل الحائط الخشبى محدقًا فى النور الشحيح للنافذة .

آه لو تمكن من التحليق فى فضاء الحوش ليدنو أكثر من هذه الظلال التى تقطع انبثاق الضوء . آه لو مده الله بالقدرة على سماع الأصوات البعيدة .

آه لو اكتمل المشهد المتخيل ..

لماذا كل هذا العذاب ؟ فليقف فى مكانه بقدرات الكائن البشرى المحدودة .. هل بمقدوره محو ما يثيره خياله ؟ تمنى لو يحدث العكس .

إن رفع الحجر أرهق الرجل . والعضلات التى نفرت فى كل عضو من جسده ربما ارتخت الآن لتعجزه عن الفعل .

الرجل القوى مغوٍ للمرأة ، الآن هى راضية عنه ، لقد نجح فيما فشل فيه الآخرون ، هو حديث بيوت البلدة .

الآن هو جدير بهذه المرأة ، بل الأكثر جدارة من كل الرجال ، هل عافتهم نسوتهم ، واستجابوا هم لخيبتهم فناموا فى حبوط الهزيمة ؟

ماذا عنه هو ؟؟

لم يطرح السؤال على نفسه قط ..

يريد إثبات جدارته عبر أحد رجاله الأشداء .

قد يوفق ، وقد يخيبُ رجاؤه .

لن يدخل حلبة المنافسة ، ولا يستطيع ، السن لا تسمح ، ولا مكانته كصاحب طواحين ، له زوجة فى مدينته أنجب منها ثلاثة أولاد وبنتين ، قضت معه أيام فتوته التى ظن أنها انقضت إلى الأبد، وهنت الرغبة فيها ، فقد استنفدت عقدين من عمره ، وها هو يقف على مشارف العقد الخامس دون أن تواتيه شهوة الأمس .

يغيب عنها بالأيام والأسابيع دون أن تخطر له على بال . يكتفى إذا عاد من طاحونته الجديدة بقضاء وطر خفيف بحكم الواجب والعشرة القديمة .

تقوم خديجة لاهثة من تحته لتلملم ثيابها ، وتسقط أطراف قميصها على سيقانها ، تقعد على حافة السرير لتمرر ساقيها فى السروال الطويل الملقى على الأرض ، تنطلق من رئتيها سعلات بغيضة بعد أن تمكن منها الربو ثم تقوم متعثرة خجلى كعذراء ؛ هذا حياء الشيخوخة لا خجل البكارة .

يفتح ضلفة النافذة القريبة من السرير ليبصق بالخارج كمن يطرد منيه المقرف .

وبعد أن انطفأت شهوته ، وارتخت أعضاؤه ، ظن أنها النهاية ، وأن هذه هى تحولات الجسد فى مثل هذه السن ، سلّم أمره لخالقه، وانشغل بأعماله ، يدير طاحونة نشطة فى (الجزيرة) يقبل عليها زبون مدينة كبيرة جعل ولده البكر فرج الأسطى الكبير ، واختار

أخاه « يونس » للعمل على مضرب الأرز ، ويتبادل الجلوس على الميزان مع أخيه « أبو العلا » ، كل وفقًا لمشاغله .

تراكمت الأموال مع ما تدره الأرض الزراعية التى يشرف عليها ولداه الآخران .

وعرض على أخويه شراء طاحونة جديدة، ولكنهما لم يوافقاه . عقد العزم – وهو حين يريد أمرًا لا يصده أحد – وابتاع هذه الطاحونة فى هذه البلدة ، أخذ من الصنايعية نورًا معلمه الأول ، وعليوة صبيه الشاب .

حين فتح الأبواب فى الصبح الأول من يوم العمل لم يأته زبون واحد ، فركن ظهره على المصطبة يعيد حساباته « هل يندم أم يصر على استكمال ما بدأه ؟ » وأطلت شهدة من النافذة ..

فبُعث جسده بعثًا جديدًا

« يا الله .. هل عاد الشباب إلى الجسد الميت ؟ »

ألقى نظرة مترددة وقورًا ، أما هى فقد ألقت فردة من ضفائرها إلى الوراء ، ولم ترفع عينيها عنه . لحظات من التحديق المتبادل ، أعقبتها رفعة يد من جانبها « هل هذا ممكن ؟ » « إنه وجه أليف بالنسبة لى ، يخلق من الشبه أربعين » .

فرد طوله ، وهبط المصطبة ليدنو من شمس الظهيرة المطلة : شمس واهنة رحيمة ، ومشجعة .

حين وقف أسفل الجدار ، رفع رأسه إليهـــا ، فقالـــت ببســـمة خجول : ألم تعرفنى يا حاج ؟ أنا شهدة .

– بنت الشيخ وهدان ؟

– هى بعينها .

كانت تتردد على الطاحونة بصحبة أمها ، صـــبية لهـــا عيـــون تطفح شقاوة ، وجسد ممتلئ ، له اكتناز قوى متماسك .

تساوم أمها فى أجر الطحين وهو يتمسك بالسعر المطلوب .

– لا دخل لى يا ست .. هذا حكم الميزان .

– من أجل خاطر شهدة .

– الميزان لا يعرف الخواطر .

– خذ هذا .. والباقى سأدفعه وهبة لنور ، وهذه البُنيـــة التـــى لحقت بى ستطمع فى شراء الترمس والحلبة .

– من أين أتيت بكل هذا الجمال يا شهدة ؟

– عيب يا حاج أنا على ذمة رجل .

– من هو سعيد الحظ هذا ؟

– بائع الجاز .

– يا الله .. وأنت هنا من زمان ؟

- فات عليّ عامان .

- ولك منه عيال ؟

- سعد .

ورفعته إليه لتريه وجهه .

- لم يحظ بشيء من جمالك .

- حكمة ربنا .. ارجع لطاحونتك ، البلد هنا صعبة ، عرب لا يرحمون .

عاد بظهره إلى المصطبة وهو لا يرفع عينيه عنها « من الذى أعاد الروح إلى هذا الميت بين الفخذين ؟ » .

أحس به يقوم من رقاده ، أنصت للدفق الهين لعصارة الحياة فى الغصن الريان . ولم يدر هل سخن رأسه بفعل الشمس المتقدة.. أم من أثر النظرات التى جعلته يصمم على البقاء فى هذه البلدة «بأى الثمن» ؟ .

وها هو يسعى فى ظلام السطح يتنصت لأصوات الليل المقبلة من الحقول خلف الدور ، وللأصوات الحميمة التى تجأر وراء خشب النافذة المغلقة .

يتدفق الدم فى رأسه من جديد ، ولا قدرة له على ترديد النفس المكتوم فى صدره . « لابد أن أعود بها إلى مدينتنا » . «لابد أن

أبتاع لها بيتًا جديدا ، وأبدأ معها عمرًا ضاع هدرًا مع زوجة مريضة » . « طاقة بدنى تتحمل حياة أخرى » «كيف أخلّصها من هذا العرباوى؟ » « هى شبابى المقبل » .

- يا نور .

- نعم يا حاج .

- يا عليوة .

- تحت أمرك يا ابا الحاج .

فتح باب غرفة الصنايعية فى لحظة واحدة ، وأقبلا على صاحب الطاحونة وهما فى دهشة من أمرهما .

« ماذا يريد الحاج فى هذه الساعة من الليل ؟ » .

- ادخلا .. اعمل لنا شايا يا عليوة .

- حاضر .

جرّ وابور الجاز إلى السطح ، دفع الكبّاس إلى الداخل وإلى الخارج فاندفع السائل على الرأس ، وأشعل الثقاب ثم راح يرقب وهج النار وسط سواد الليل .

★★★

[من الظلمة نور]

لم تكن علاقة أبو المعاطى ، بنور مجرد صاحب ملك وعامل. إنها صداقة قوية ، وقديمة .

لا يمكن لأحد أن ينكر دور نور فى تمكين الحاج من طاحونة الجزيرة .

كيف كان ذلك ؟

أيام بعيدة جدًا ، ترجع للشباب الأول .

هل يذكرها نور ؟ لا شك ؛ فهى منقوشة فى عقله كتلك الخطوط المحفورة على الحجر الصوان .

كانت ليلة من ليالى الصيف ، فتح نور أبواب النوافذ على ظلام الشارع ، وعلى حرم الطاحونة من الجهة الغربية ؛ ليمارس عمله الليلى المعتاد . فى سكون المدينة الغافية ، تتوقف آلات الطاحونة مع آخر زبون ، تهدأ حركة السيور ، ويهمد الوابور المشتعل بدفقات الجاز ، وتكف ماسورة العادم عن إطلاق دخانها المنطلق كسُحب ثقيلة فوق البيوت المحاطة بأسوار الطاحونة ، يُرفع الميزان إلى الداخل ، وتُوضع فوقه الطاولة التى يسجل عليها صاحب الملك (نمرة) الزبون ، بعد أن يجمع أمواله فى صفيحة صدئة ويُغلق باب مضرب الأرز ..

يعود أصحاب الطاحونة من آل خليفة إلى بيتهم في واجهة الشارع . ويبدأ عمل آخر لنور غير الذى يؤديه طيلة النهار كأسطى يراعى الوابور ، وماكينة الزيت ، وطلمبة ضخ الماء الساخن ، وغيرها من آلات تضرب كايقاع متوازن فى حواس بدنه من الصبا الباكر .

يصعد مع الليل رافعا المصباح الزجاجى الذى يلمع ضوؤه فى بشرته السوداء ، يسحب (القادوس) المعدنى من فوق الحجر إلى مكان بعيد ، ويأتى بالرافعة ذات الذراعيْن القويتيْن يغرس خطافيْها فى الفتحتيْن الجانبيتيْن للحجر ، ويلف اليد الصلبة ليصعد بالحجر إلى أعلى . يستجيب الحجر بسهولة ، ويصير خفيفًا كريشة تحركها نسمة هواء لطيفة .

يركن الحجر جانبا .

وبقطعة قماش نظيفة يكنس بقايا الطحين عن وجه الحجر الآخر المثبت فى جسد الطاحونة .

يشعر نور بحرارة الحجر لكثرة دورانه فى النهار ، فيفترش خيشة مطوية لتحجز الدفء عن عجيزته . يضع اللمبة بالقرب من عينيه ، ويميل فى مساحة الضوء على الخطوط ليعيد إبرازها بشاكوش حديدى مسنون .

يستغرقه هذا العمل تماما ..

يتردد صدى ضرباته ترتيلاً يهدهد سكان الحى .

اعتادوا عليه ، وأدمنوا سماعه ؛ فهو علامة على دخول الليل .

تنطلق النقرات فى صمت الشوارع التى لا تضيئها غير فوانيس قليلة ترتفع على أعمدة عند تقاطع الطرق .

- يا نور ..

لم تسمح له النقرات المتوالية بسماع الصوت .

- يا أسطى .

لم يسمع هذه المرة أيضًا .

- يا أسطى نور .

هنا استطاع السماع لأنه فى هذه اللحظة رفع سيجارته ليلقف منها نفسا عميقا . فاستدار نحو نافذة الشارع .

- من ؟

- أنا أبو المعاطى .

- إعمل لى كباية شاى وتعال .

دخل عليه حاملاً الكوبيْن كل فى يد ..

مد نور يده إلى الكوب السخن بلهفة ، وأراد إشعال سيجارة أخرى .

- هذه من عندى .

فأعادها إلى العلبة ، ومال ببوزه ليشعلها من الثقاب المتقد بين إصبعى أبو المعاطى . الذى ركن ظهره على قمع (القادوس) .

كان أبو المعاطى قد راقب أولاد عمومته من آل خليفة عند خروجهم بملابسهم النظيفة لينضموا - ككل ليلة - إلى حلقة البوظة والحشيش ، فهو لا يستطيع دخول الطاحونة فى وجودهم ، بعد أن تنازع معهم فى حق والده كشريك لهم .

- سمعت بما حدث من يومين ؟

- الكل سمع .

- ممكن تقدم لى خدمة ؟

- تحت أمرك .

- أريد تعلم العمل فى الطاحونة .

- أنت تسعى لخراب بيتى .

- لن يعلم أحد .

- بلدنا لا يخفى عنها سر .

- سأحضر إليك كل ليلة لمدة نصف ساعة ، واطلب ما شئت .

- المسألة ليست فيما أطلب ، الخوف لو أنهم علموا ما بيننا فسيقطعون عيشى .

- أنت تتعامل مع رجل .

- وماذا تريد من الطاحونة ؟

- أنت تعلم أنهم يظلمون أبى ، لا يعطونه أبيض ولا أسود .

- عارف .

- والرجل - كما تعلم - متساهل ، ويقول : أبناء عمومة ، وهو كما ترى تدروش بحكم السن ، ولا عمل له غير العبادة ، وقضاء وقته على المصطبة خلف الطاحونة .

- رجل صالح بحق .

- وهم - كما ترى - فسقة ، يقضون الليل فى احتساء البوظة وتدخين الحشيش غير ما تعلم عن فجرهم مع الزبونات .

- وهم الآن يعانون الإفلاس .

- وكلما أفلسوا لجأوا إلى أبى ، يبكون بين يديه « أنت ابن عمنا ولا ترضى لنا الفضيحة ، انقذنا ، هم (قرشين) لنشترى السير» ثم يعيدون الاسطوانة ذاتها «الطاحونة عاطلة ؛ لأنها فى حاجة لقطعة غيار ، لا نملك ثمنها » .

ويكتبون له ورقة تافهة تقر بديونهم .

- عمل الطاحونة ليس سهلاً يا « أبو المعاطى »، وأنت لا خبرة لك، أنت - لامؤاخذة - فلاح ، لا تعرف غير القلع والزرع ، وكذلك إخوتك .

- جربنى ، فستجدنى سريع الاستيعاب .

- على بركة الله .

- لنبدأ من الليلة ، علمنى ما تفعله الآن .

- هذا أتفه عمل فى الطاحونة ، وآخر مرحلة فى التعليم ، البداية فى العدة .

- لنبدأ من العدة .

- لابد أن أنهى ما بيدى ، خليها لبكرة .

- أمرك يا نور .

أخذ منه الكوب الفارغ بعد أن منحه سيجارة أخرى ، وعاد إلى بيته مستبشرًا بتخليص حقه ممن ظلموا أباه الشيخ .

وكانت صداقة العمر ..

فرح نور بهذه العلاقة ، عاونه فى الوصول إلى هدفه ليتخلص من هؤلاء الظلمة الذين لم يكفوا عن إهانته « تعال يا أسود ... رح يا أسود » .

يسبونه أمام الزبائن علنًا « كله من ابن الجارية » « لو عمل كذا بذمة لما وقع الخطأ » .

ويحملونه كل مصيبة تحدث للطاحونة ..

أما أبو المعاطى ، فرجل حقًا ، عف اللسان . يعامله بندية ، ويجلس أمامه كتلميذ شغوف بالدرس ، يلحظ فى عينيه بريق الذكاء، ونظرة الإعجاب بعلمه ، بل كان يردد أمامه دون خجل :

«من علمنى حرفا صرت له عبدا » فيقول له نور مبتهجًا : « قل لأولاد البهائم الذين يصرخون فى وجهى : « يا نسل العبيد » .

وفّق أبو المعاطى فى الاستيلاء على الطاحونة بكاملها بعد إفلاس ملاكها من آل خليفة ، نور هو الذى دبّر له الخطة بحذافيرها « من يتمكن من اليد الحديد التى تدار بها الطاحونة يصيرْ لها مالكًا » .

وانقض عليها أبو المعاطى ذات صابح ، وأخفاها فى مكان لا يعلمه غيره ، وبدأت المفاوضات «هات اليد» «نقسّم الأيام فيما بيننا» « أنا أسبوع وأنتم أسبوع » « الطاحونة معطلة لا أنت مستفيد ، ولا نحن » « كما قلت لكم : أسبوع على الميزان ، وأنتم أسبوع » .

وافقوا ..

على أمل أن هذا الفلاح لا يدرك شيئًا فى أمور الميكانيكا ، وحين يفشل سيعود إلى حقله خائب الرجاء .

لكنه أفلح ، وأثبت نجاحًا غير متوقع بالنسبة إليهم . الدخل الذى اعتادوا عليه هبط إلى النصف ؛ فلجأوا للاستدانة منه . لا يوافق حتى يتنازل أحدهم عن أسهم له بورق رسمى .

دانت له الطاحونة كاملة .

قبل رحيلهم عنها ، وقف أبو المعاطى إلى جانب نور بشهامة رجل لا تهزمه الأحداث العظام ، كانوا يريدون خلعه من الطاحونة بطرده من البلد ، بزعم أنه عبدهم الموروث من الأجداد الأوائل» ، فقد قام جده ، ثم أبوه بينهم فى بيت واحد كخدم للأسرة ، لهم كل الحق فى التحكم فيهم .

وأعلنها أبو المعاطى بتحدٍّ : هو رجلى ولا حق لكم فيه .

– كيف وقد اشترى جدنا الأول جده الأول منذ أكثر من مائة عام ؟

– كان زمان .

– وأنت يا أسود .. ما اختيارك ؟

– أنا مع صاحبى « أبو المعاطى » .

– صار لك صوت تتحدى به أسيادك .

– هو حر فى اختياره .

– كله واشرب ميته .

فى هذه الليلة ، وفى ظلام هذه البلدة الناكرة لوجودهم سمع نور النداء وهو ممدد فى حجرة السطح إلى جوار صبيه عليوة .

خرج من الحجرة على عجل ، فصورة الثعبان لم تزل تتماوج فى خياله . هل ظهرت أنثاه لتنتقم من صاحب الطاحونة ؟

– يا نور .

واجهه الليل فتاد فى ظلامه ، ولم يبن منه غير سرواله الأبيض الطويل .

– يا عليوة .

ووقفا أمام الحاج متسائلين ..

لم يكن وجهه يتضح فى النور ، حين دخلا عليه الغرفة ، لاحظ نور القلق الذى يعرفه فى صاحبه كلما حزبه أمر شديد ، فرفع شعلة المصباح .

– اعمل لنا شايا يا عليوة .

وظل صامتا ينتظر أن يفتح الحاج الموضوع الذى دفعه لاستدعائه . وطفح القلق مع النور الذى ينوس على وهج الوابور المتقد خارج الغرفة .

★★★

[عليوة يصنع شايًا]

« الحاج لم يسامحنى بعد ، ويبدو أنه لن يسامحنى أبدًا .. » هكذا حدّث عليوة نفسه وهو يفرد طوله فى الفرشة المقابلة لفرشة نور .

« جاء بى إلى هنا ليُنسى الجزيرة فعلتى » .

عليوة لا يعرف شيئا من أمور الدنيا غير الطاحونة ، دنياه محصورة بين أسوارها وعدتها ، وجد نفسه يحبو على عتباتها ،

ويخطو أولى خطواته بين سيقان الزبائن ، وأرجل المطايا فى حوش الحمير .

أمه تبيع الترمس والحلبة بالقرب من الفتحة التى تحجز حجرة العدة وحجرة الطحين ، تتركه ليزحف بأقمطته بين القفف والمقاطف وأجولة الحب ، يهبط درجات السلم ويصعد إليها حين يقرصه الجوع ، فتخرج له ثديًا ممطوطًا كضرع العنزة الهزيلة ، يلقفه بلهفة ممسكا به بين كفيْه الصغيرتيْن ، وعند الارتواء يدعه ليحدق طويلا فى السقف بعينيْه اللتيْن تتدلى عليهما (خمسة وخميسة) ، ثم يعاود ضربه ليشد حلمته النافرة إلى فمه ، ويعضعض أطرافها بأسنان صغيرة لينة ، ثم يجرب العنف ليستعيد أمه المشغولة بملء القراطيس : أى ..... وتخبطه على صدره ...

فينطلق صراخه ليغطى على ضربات الحديد فى الحديد . يفز نور من دكته التى ترفع القفة أمام فوهة يتدفق منها الطحين أبيض ناصعًا .

- سدى حنكه ، لا ينقصنا غير صداعك أنت والمحروس .

- الولد عضنى .

فتنبرى إليها الزبونة صاحبة الطحين ، وهى تدس العصا فى فتحة الحجر .

- إفطميه .

- كله بأوان .

- خلاص .. خليه يأكله .

ويطلق نور ضحكة قوية تنطلق مع سعلاته المحشرجة من كثرة ما استنشق فى رئتيْه من السجائر والدقيق .

- وتمشى من غير بز ؟

- تضربه صاحبة الطحين برفق على ركبتيْه .

- شف شغلك بلا قلة أدب .

- بذمتك متى تحممت آخر مرة ؟

- الحمد لله رجلى بعافيته .. الدور عليك .

وتعلق زبونة واقفة عند (القادوس) بانتظار دورها .

- يدك والأرض منه .

فيرفع نور وجهه المبتسم إليها :

- جربينى ؟

- لم يعد غيرك يا أسود .

ويردد أغنية قنديل رافعًا ذراعيْه الطويلتيْن إلى أعلى : « جميل واسمر .. جميل واسمر .. » .

حين صار عليوة صبيًا يافعًا ألحقه الحاج بصبيان الطاحونـــة . يقضى الطلبات القليلة كصنع الشاى ، أو مساعدة الزبونة فى إنزال حملها الثقيل ، ثم دفعه إلى نور .

- علمه الصنعة .

- الولد مخه تخين ، ليس كالصبية الآخرين .

- خليه للزمن يمكن نحتاجه .

أمرد الحاج بالوقوف أمام باب الميزان ، لا يفارقه . عند قدوم الزبونة يهرع إليها ، ويرفع القفة وحده ليضعها على الميزان ، ثم يعاود رفعها إلى رأسها .

« الولد عفى .. ما شاء الله ... »

وحين يقف الحمار بأجولة القمح يميل بصدره نحو الحمولة فيرفعها بسهولة إلى الميزان ، ثم يلفعها على ظهره إلى الداخل . يصعد بها السلم ، ويحطها بالقرب من (القادوس) .

« اللهم صلِّ على النبى .. قوة بغل » .

الولد ينمو ، والجسد يزداد اكتنازًا بعضلاته الجامدة ، ينظر إليه الحاج مندهشا من هذا الفقير الذى يعثر على طعامه بالعافية . الولد عضلة واحدة خالية من الشحم .. » .

عليوة ينمو ، وتنمو معه غرائزه ، وتزداد نظراته توحشا ولحظ الحاج أن عين الولد تنغرس فى لحوم النسوة كأنياب حيوان جائع .

أدام إليه النظر فانكسرت نظراته ومال بوجهه إلى الأرض .

. فقد الولد براءته .. » .

يمد ذراعيه إلى أذن القفة ، ويدفس أشياءه المتوترة بين فخذى المرأة . منهن من يعاملنه بحسن نية فيغفلن عن فعلتـــه ، ومـــنهن من تلمس غلظته فينفر جسدها من روائحـــه البتروليـــة المختلطـــة بعرق الشباب ؛ فتضربه خفية فى صدر ؛ .

ذات ظهيرة جاءت امرأة مشهود لها بالجرأة ، على الرغم مـــن تبرجها ، وعياقتها ، ويهمسون فى الخفاء ، إنها تســـتقبل الرجـــال فى بيتها.. . حط عن رأسها القفة ، ونشق عطرها ، واتسعت فتحتا أنفه .. رفع رأسه إلى سقف حجرة الميزان كحمار عثر على بـــول أتان تعيش لحظة خصوبتها .

تدللت المرأة على الحاج ، مررت أصابعها على ذقنه ، وداعبت أذنيه . ولكنه لم يستجب لها ؛ فهو عليم بغرضها ، فى كـــل مـــرة تكرر لعبتها ، وهو لا يستجيب .

– كم يا حاج ؟

ذكر لها السعر ؛ فخبطت صدرها فى ذعر .

– أسعارك عالية .

– والله .. هذا حكم الميزان .

– أخوك يراعينى دائمًا ؛ فهو يعلم أنى امرأة وحيدة ، ولا زوج لى يعيلنى .

– كل شيخ وله طريقة .. ارفع يا عليوة .

ومال عليوة على القفة ليساعد المرأة ، ولم يتمالك نفسه ، دس حيوانه الهائج كقطعة من حديد ملتهب ؛ فضربته المرأة بركبتهـا . صرخ عليوة . وكاد أن يسقط مغشيا عليه .

قال له الحاج معاتبا :

- تستاهل .. إياك تكرر هذا الأمر مع زبونة .

الغريزة لا تعرف حدودًا ، ولا شيء يقدر على كبحها . ووقعت الواقعة . مع تلك الفتاة التى جاءت مصاحبة لأمها . كانت ممسكة بذراع الأم ، تزوم بأصوات مبهمة ، ويسيل روالها على صدرها . ترمش بعينيها الآسيويتين ، وتهش الذباب الملحاح عنها بكسل .

انتهت الأم من حساب الطحين ..

أرادت الدخول إلى الطاحونة ، ولكن البنت أفلتت منها . لتعود إلى الحاج مادة يدها .

- اش هاج .. إش (قرش يا حاج .. قرش)

ونفض الحاج جلبابه بسخط :

- كل زبونة تجر عيلها لتشحت عليه ، نقفلها أحسن .

ثم التفت إلى عليوة :

- راع الميزان حتى أصلى العصر .

- حاضر .

قطع الشارع إلى الجهة القبلية ليدخل بيته الملتهب بشمس لا تريم .

قبل أن يختم التحيات ، سمع الصوات يأتيه من جهة الزرائب المشيدة فى الجهة الغربية من حرم الطاحونة .

عجّل بالتحيات ثم دار بوجهه جهة اليمين ثم إلى اليسار ، وخرج من داره ليلحق بزوجه وأولاده الذين اندفعوا نحو الزحام .

كانت الزبونة الأخيرة تخنق رقبة عليوة ، ولا تريد إفلاتها . وعليوة ينحنى أمامها يتلقى ضربات النعل السميك ، والفتاة تقف بعيدًا تمسح روالها ، وترفع ذيل ثوبها إلى أعلى : دم يا أمه .. دم.

أقبل الحاج نحو المرأة .

- ماذا حدث ؟

قالت المرأة ووجها يطفح بالغضب الذى امحى احترامها لوقار الحاج .

- النجس ابن النجس .

- اتركيه وأنا أؤدبه ، وحقك عندى .

- حق !!

- ما تأمرى به مستجاب .

- هل تعيد شرف البنت الغلبانة ؟

انقض الحاج على صبيه بالركل مرة ، وباللكم مرات ، والبصق على الوجه .

- إخص .. الله يلعنك .

ونجح عليوة فى الهزب من قبضة الحاج الواهنة . اخترق دائرة النسوة ، وانطلق إلى الشارع ، لا ينظر وراءه أبدًا .

★★★

[الحاج يكاشف نورًا]

دخل عليوة بصينية الشاى فوجد نورًا مطرقًا إلى الأرض عاقدًا ذراعيه على الركبة ، كما وجد الحاج صامتًا يدور فى المكان بعين قلقة .

أمره بترك الصينية على قطعة الخشب التى تتوسط الفرشة والعودة إلى غرفته .

انسحب بهدوء ولكنه لم يدخل الغرفة ، وقف بالقرب من النافذة الصغيرة ، لا يخرج النفس من صدره ، وسمع الحاج وهو يسأل نورًا : قل .. ماذا أفعل ؟.

- الموضوع صعب ، البنت جميلة ؟ أى نعم ، ومن بلدنا ؟ ... أيوه . وأنت أولى بها ، لا شك ، ولكن ماذا ستفعل بالولد ؟ أبوه لن يفرط فيه بسهولة ، ثم إن الرجل ابن عرب ، وطلب الطلاق مصيبة كبيرة .

- الولد مقدور عليه .. والباقى أمره سهل .

- كيف ؟

- إذا تأكدت من رغبتها فى التقدم إليها .

- هى متزوجة فعلاً .

- إنها تعيش بين ناس لا يحبونها ؛ فهى غريبة ، وفلاحة .

- كل هذا صحيح .. كيف أساعدك ؟

- أحضرتك لتجيبنى لا لتسألنى .

لا يدرى الحاج ما يريد بالضبط .

كل ما يعرفه أنها بعثته حيًا ، بعد أن اعتقد لفترة طويلة أنها النهاية . عليه أن يستسلم لخواء البدن ، ويكفيه ما ناله من خديجة حين كانت شابة . هل يقنع بالعيش بين الأبناء والحفدة ، ظله الذى يدب على الأرض ؟

قضى السنوات الأخيرة قانعًا حتى وقعت عينه على شهدة ، الحصول عليها صعب للغاية ، كما يدخله فى صدام حاد مع أهل البلدة جميعًا ، ولا يستبعد أن يجتمعوا عليه يومًا رافعين المشاعل ليحرقوا الطاحونة .

فشلت خطته هذه الليلة ، كان يراهن على فشلهم الدائم فى رفع الحجر ، لم يجرؤ أحدهم على زحزحته من دائرته ، وهم لا يكفون

عن المحاولة ، هو لهوهم ، ومجال تحققهم ، هكذا يقضون الساعات الأولى من الليل فى محاولات فاشلة .

كان يحض نورا على رفعه ، يرصد له مبلغًا كبيرًا من المال . ويحثه على تمارين الرفع خلسة ، فى الأوقات التى يسرحون فيها مع أغنامهم ، وأثناء النهار الذى يقضونه بين الحقول ، بعد أن تمرسوا على الزراعة حيث امتدت الترع الجديدة لتخصّب تربتهم الرملية . أجيال بعد أجيال ، أتقنت الغرس والحصاد ، والتعامل مع حرفة احتقرها الأجداد الفاتحون الذين فضلوا الإقامة على الأطراف الشرقية . رجل فى الرمل وأخرى فى الطين . يكتفون بالغارات المفاجئة على القرى القريبة من مضاربهم .

وسعى النيل إليهم فامحى الرمل ، وخلّف تربة خصبة تراكمت طبقة فوق طبقة ، فاستسلموا لها ، وانحنوا إليها لينثروا البذور التى يحصدونها محصولاً وفيرًا فى مواسمه ، وتشبثت فئة قليلة بحرفة الأجداد ، لم يتخلوا عن الإبل والأغنام والماعز والخيول ، وتكاملت الحرفتان فى ضرورة لا غناء عنها ، وبدلاً من الرعى على النبات الخشن للأرض الصفراء ، راحوا يطلقون دوابهم على الحصيد فى الأرض الجافة ، وإذا لم يتوفر لهم ذلك بدّلوها بأعلاف وعيدان خضراء ريانة . فتغيرت الطعوم ، ولم تتغير الطبائع ، ظلت لشيخ القبيلة هيبته ؛ فهو المرجع الذى لا راد لقضائه ، كما حافظت النسوة على زيهن المزخرف بنقوش ملونة على القماش الأسود ،

تتدرج قوة القبيلة كلما توغلت بطونها فى أرض سيناء ، وتتخفف كلما دنت من المنابع العذبة للمياه .

أصحاب الطاحونة قدموا عليهم من جهة النهر الكبير ، هم فلاحون أبناء فلاحين ، لا يحسنون غير تخطيط الأرض ومراعاة النبتة الصغيرة الخضراء حتى يصلب عودها ، ويتوزعون على الحرف التى تخدم عملهم ، فمنهم الحدادون والنجارون وصناع الحصر والخياطون والكواءون ، وأخيرًا الطحانون يمتلكون الطاحونة بعد أن يتخلى عنها الخواجة الذى قام بتأسيسها فى المدن الصغيرة والقرى الكبيرة .

والطاحونة لا تدار إلا بدم ..

لها فدية لابد من قضائها مهما طال الأمد .

كأن تخطف الولد من حجر أمه ، يفترسه السير الذى يدور على طارتيْن كبيرتيْن أو تبتلعه بئر الماء الساخن ، أو تضرب الحدّافة أحد رجالهم فتطيح بلحمه فى أركان غرفة العِدة التى سوَّدها الدخان والمازوت .

فكيف يجرؤ أحدهم على الدخول إليها ؟ والرحى فى البيوت تغنى عن هذه الآلة الشريرة التى تتحرك وحدها ، بينما هى ثابتة على مصطبة حجرية ، تصطك عليها آلات تطل رؤوسها كعفاريت الليل .

هل بث الله الروح فى الحديد فصار كآدمى يجرى فى مكانـــه ، ينفث البخار من فيه ، والغازات من مؤخرة طويلة ترسـل الســحب السوداء على ذؤابات النخيل ؟

– افهم من كلامك أنك عاجز عن مساعدتى ؟

– أنا تحت أمرك .

– يمكنك مقابلتها أثناء غياب زوجها وتفتح معها الموضوع .

– للبلد عيون وآذان .

– كان والدك صديقا لوالدها .

– الله يرحم الجميع .

– أقصد أنـها ستثق بك .

تنـهد نور حين ذكر والده ، وعاد إلى أيامه الأولى .

كان طفلاً فى دار آل خليفة ، والأب موروث كمتاع لـهذه العائلة يخدم فى البيت والطاحونة إذا لزم الأمر ، أما الليل فهو ملك خـــاص به ، يذهب آل خليفة إلى أماكن لـهوهم ، ويتسلل هو إلى بيت الشيخ وهدان والد شهدة ، لم يكن رجل دين إنما أخذ المشيخة من عملـــه السابق كشيخ للمناسر ، ابن ليل حقيقى ، لجأ إلى هذا انتقاما مـــن المأمور الذى فصله من عمله ، ونفاه إلى جبل سيناء ، بعد انقضاء مدة الحكم ، شكّل جماعة من أهل الليل يسطون على بيوت الأعيان،

فيسحبون ماشيتها ، أو ينقضون على الكبار منهم فيكتّفون أيـاديهم وأرجلهم بالحبال مسددين البنادق إلى وجـوههم ؛ حتـى يعترفـوا بالأماكن السرية لأموالهم ، خاصة فى مواسم جنى القطن .

كان والد نور هو العبد الوحيد الذى أُلحق بالجماعـة ، وكسـب ودهم لجسارته ، وشجاعته ، ولقواه البدنية التـى تفـوق الحـد ، يصدرونه للأمور الصعبة ، ويثبت لهم أنه جدير بهم .

للجماعة أعراف وتقاليد لا يمكن تجاوزها .. وإذا عَـنَّ لواحـد منهم تجاوز هذه الأعراف والتقاليد فإنهم يطلقون النار على رأسه ، دون تردد ، ويتركونه فى مكانه مضرجًا فى دمائه ، يؤوبـون إلـى مدينتهم محملين بحصيلة الليلة غير عابئين بسقوط رجل منهم .

قضى والد نور نحبه بهذه الطريقة ، فقد تجاوز الحد المتعـارف عليه ، ولم ينفع معه تذكيره بقوانينهم الأخلاقيـة التـى لا يمكـن تجاوزها ، ولكنه ركب رأسه ، وكلبشت الشهوة فى سائر بدنه .

فى هذه الليلة عبروا بحر البقر ؛ حيث دلهم ابن لأحد الأعيـان على حظيرة الماشية . كان الولد قد وقع فى غواية الليل ورجالـه ، ولأن أباه رجل بخيل ، يكنز القرش على القرش ، كمـا داوم علـى إهانته بين الرجال ، وأمام زوجه ؛ صمم على الانتقام منه .

دل الرجال على الطريق ، ثم اختفى بعيدًا عن قريتـه ، نقبـوا الجدار ، وأخرجوا الماشية ، كان الاتفاق على الماشـية فحسـب ،

ولكن والد نور قال لهم : نلقى نظرة على الداخل ربما عثرنا على بعض المال .

وسبقهم إلى الردهة المظلمة ..

فتح بابا مغلقا فوقعت عينه على صاحب البيت يواقع خادمة له فى حجرة الكرار ، بينما ترك زوجته تتقلب وحيدة فى شفافية الناموسية .

قام الرجل مذعورا .

قال له العبد بصوت مكتوم : اثبت مكانك .

ورفع فى وجهه البندقية ، فثبت الرجل مكانه ، وانكمشت الخادمة فى ركن من الفراش ، سحب العبد الحبل السميك من وسطه ، وكتف به الرجل المرتعش ، وفك شال عمامته ليكتم فمه.

دخل الرجال وراءه فرأوا العبد باركا فوق المرأة المتململة .

- أنا فى عرضك .

- انت خليتى فيها عرض .

- أنا لا أحتملك .

حاول الرجال جره إلى الخلف ولكنه تملص منهم ودفعهم بساقيه، وهو يغرس آلته بين فخذى المرأة .

قال الشيخ وهدان : تجاوزت الحد يا رجل .

- ابعد عنى .

- ليس من تقاليدنا اغتصاب النساء .

- اتركونا فى حالنا .

كان يلهث ويقبض بذراعيْه على جسد المرأة التى كادت تلفظ أنفاسها من وطأة الثقل والفعل معًا . كان يمزق فيها تمزيقًا .

والرجال حين انحنوا عليه ليفصلوه عن المرأة وجدوا الجسديْن يرتفعان معًا .

- للضرورة أحكام .

قال الشيخ وهدان بحسرة شديدة ، وأطلق رصاصته على الرأس الأسود فتدحرج على صدر الخادمة ، وعادوا جميعًا بسرعة إلى الماشية قبل أن تستيقظ الزوجة .

- أنت تحمل مرارة تجاهها يا نور .

- زمان وفات يا حاج .

- ستساعدنى ؟

- ربنا يسهل .

مسح عليوة العرق عن جبينه ، ورفع سائل الفم الذى بلل شفتيْه ، وعاد بحذر نحو باب الغرفة يسير على أطراف القدميْن ، مترنحا ، دائخًا من هول ما سمع .

رد الباب بحرص .

وتمدد على الفرشة فوق الأرض الجافة .

ظل لفترة يحدّق فى الظلام ، يحاول محو المشاهد التى لخبطت عقله المحدود .

– عينى لك يا حاج .

ثم سقط فى النوم للحظة ، بعدها قام فزعًا على الصراخ الذى انطلق من نافذة المرأة .

وهبط مع الحاج ونور متجهين نحو دارها .

★★★

[فى بيت شهدة]

عاد طه الغمراوى إلى بيته منتصرًا على الحديد ، فهل ينتصر على شهدة ، ويفوز بقلبها ؟ ، امرأة مراوغة ، تخفى سرها ، ولا تبوح به أبدًا .

جاءت إلى بلدته كرها ، يدفعها أبوها دفعًا ، وضعوا لها الكحل فى عينيْها ، ومشطوا شعرها الناعم ، وتركوه منسابًا على كتفيْها تحت الطرحة البيضاء . من فتحة فستان العرس الأبيض دسوا لها كوبيْن كبيريْن ليظهرا نهديْن عظيمين بدلاً من هاتيْن الترمستيْن النابتتين على استحياء . وضعوها بين ستائر الهودج . واستجابت لخطوات الجمل الهينة ، متجهة من الجزيرة إلى الصوالح بعد أن عبرت الكثير من الجسور الصغيرة ، وقطعت المسافات الطويلة بين حقول نائمة تحت صفرة شمس غاربة تتفجر بقاياها فى احمرار دموى على حافة الركن الغربى من الكون الشاسع .

ظلت صورة الدم السماوى صاخبة فى عقلها ، لا ترفع عينيهـا عنها حتى زالت تحت عباءة سوداء ثقيلـة لسـحابة مرقـت إلـى جانبها، ولم يعد غير ليل يفرش عتمته فى الأنحاء وصخب الذاهبين معها من أهل الجزيرة ومن ناس الصوالح ، يضربون على دفـوف كبيرة ويرقصون رافعين العصى الغليظة ولهيـب المشـاعل التـى أضيئت .

كانت وحيدة بين ستائر الهودج تنحنى إلى الأمام وترجـع إلـى الوراء دون إرادة منها ، حتى بانت بيوت البلدة كغفـراء يرتـدون معاطف سوداء ولبدات طويلة ، وبنادق تبرز فوهاتها خلف الظهر .

سمعت طلقات الرصاص فارتجف قلبها ، وتلقاها هـذا الرجـل الذى زار بيت أبيها ذات يوم ، ومن قبل رأته على عربة (الفنطاس) يجرها حصان هزيل .

كانت صبية تلهو أمام الباب مع رفيقاتها من بنـات الجيـران ، حدّق فيها طويلاً ، ولم تفهم مقصده ، حين نزل عن عربته مـرّر كف يده على شعرها ، فقضمته من طرف البنصر .

- أى .. يا عضاضة .

وسأل مَن حولها : بنتَ من هذه الصبية ؟

قلن له : بنت الشيخ وهدان .

- عندها حق .

ثم عاد بعد يومين مرتديا جلبابا نظيفا ، ويلف رأسه بشال أبيض خفيف يطرق الباب بعصاه الطويلة .

كان الأب قد عاد من منفاه بعد أن عُزل من وظيفته وانفض عنه رجال المنسر ، ولم يعد لديه ما يفعله ، اتخذ لنفسه ركنا فى الدار يستقبل الرجال ليلا . يلتفون حوله ليستمعوا إلى حكاياته الباهرة . تكونت حلقة الرجال من خفراء ممن خدموا معه ، وعُزلوا من عملهم لارتباطهم به ، وفُلول كهلة من أبناء الليل الذين التحقوا بجماعته .

قضوا أشهرا قليلة فى حجز المركز ، ثم أُفرج عنهم بعد أن نبّه عليهم المأمور بالتزام دورهم ، وأنه لن يرحمهم إذا عادوا إلى عمل المناسر . كما ضمت الحلقة بعض الجيران المحبين للرجل ، ولا يخشون لوم رجال الحكومة .

شهدة ترقب كل هذا ، تمدد جسدها الغض على حصير نُشر فى الردهة ، تستند على فخذ أمها ، وتنصت إلى كلام الرجال بالداخل .

تسعد إذا أتوا إلى ذكر أفعالها بعد اعتقال الأب وترحيله إلى جبل سيناء .

شكّلت جماعة من رفيقاتها يواصلن عمل الليل ضد رجال المركز ، يملأن قراطيس الورق بالتراب ، ويكمن وراء حطب السطح عندما يمر الخفير فى دركه ، يطلقونها على لبدته فى صرخات مفاجئة فيفر الرجل مذعورا خارج الدرك .

ثم قصدن للعمل خاصة ضد خليل الذى عُيِّن شيخًا للخفراء بديلا للأب ، وجعلوا منه هزءًا فى حيهم ، ثم فى الأحياء الأخرى ، حتــى امتنع الرجل عن النزول إلى دركه ؛ فلا قدرة له على غلـق مقهــى تجاوز المدة المحددة للإغلاق ، وعجز عن إصدار الأوامر للخفراء، ولأهل الجزيرة . كان يكتفى برفع بندقيته ، وبيده خيزرانة طويلة ، يقف على جنب ، ويطرق بها الأبواب : اقفل يا ابنى ..

فيسمع قهقهات الرجال : بدلاً من إبداء الشجاعة علينا خلِّــص أمورك مع بنت الشيخ وهدان .

ينسحب خزيانًا ، لا يجرؤ على رفع عينيه أمام أحد قط ، وحين يهبط إلى الشارع الرئيس ويصيح صيحة الخفراء المعروفة : ها .. من هناك . يأتيه صوت شهدة : أنا يا واطى .

يصمت فى الحال ، ويختار أقرب شارع جانبى يلوذ إليه بعد أن يرفع لبدته تحت إبطيْه ، فهو لا يدرى من أى جهة ستأتيه الطوبــة أو قرطاس الورق المعبأ بالتراب .

فشل فى السيطرة على أهل الجزيرة تمامًا . وكان المأمور قــد وبَّخه أمام الخفراء فى طابور الصباح : صــرت مسخرة يا خليــل ، ولا قدرةَ لك على العمل كشيخ للخفراء .

وتقدم إلى المأمور بشجاعة نادرة فألقى أمامه اللبدة والجبخانة والبندقية ، ثم خلع السُــترة والسروال ، ووقف بالفانلة واللبــاس : خذ أشياءكم فلا حاجة لى بها .. سأعود إلى غيطى .

وأعلنها صراحة فى وجه المأمور : عجزت عن السيطرة على بنت وهدان ، شوفوا لكم حلاً معها ، وأنا تحت أمرك .

وخلت الوظيفة بإقالته ، لم يجرؤ أحد على التقدم إليها . واستمر المأمور فى إدارة هذا العمل ، يمتطى حصانه ليلاً . ويسير شامخًا بين عساكره من الخيالة .. مزهوًا بنفسه .. فارضًا المزيد من القهر على حياة أهل الجزيرة .

وآثر الناس السلامة فقرّوا فى دورهم ، يضحكون سرًا على ما فعلته شهدة بخليل . ويبدون الخضوع إذا واجهوا المأمور . وتناقلت الألسن قصة خليل وشهدة ، وسمع بها أهل القرى التابعة للجزيرة ، فصارت شهدة بطلة أسطورية تضاف إليها المعجزة تلو المعجزة . حتى اختلطت الحقيقة بالخيال .

ولما عاد الشيخ وهدان من منفاه مكسورًا مهزومًا لم تفارق يده الأغلال التى كبلته . كان يتحرك فى بيته كأنها لم تزل هناك تمسك بقدميْه وبمعصميْه .. يطأطئ الرأس فى حركة محدودة ما بين الردهة والغرفة ، يتحلق حوله الرجال ، يذكرونه بأفعاله القديمة لتبعث روحه من جديد ، ولكنهم لم يسمعوا منه غير الحديث عن الحَجر الصخرى الذى يدق كتلته ، طول النهار ، وعن الجنود الذين يلسعون ظهورهم بالسياط حين يتخاذل أحدهم ، وعن الرجال الذين سقطوا تحت الحجر المنهار ، وتحت وطأة الجهد والجوع ، فتلقى أجسادهم دون أكفان فى ماء البحر المالح ، يرحلون إلى قاع البحر

لتنهش جثامينهم أسماك القرش المتوحشة ، ولا يقف فى وداعهم ابن ولا زوجة ولا أخ ، تسيل الدموع على الخديْن وتتسرب قطراتها فى شعر لحية شعثاء متهدلة إلى الصدر .

لكن شهدة رفضت الإقرار بما يقصه الأب ، تفاجئ الرجال فتقف على باب الغرفة المزدحمة بالظلال الممتدة على الجدران لتحيى ذاكرة الأب قبل الرحيل .

– فاكر يا أبى صورتك فى الجريدة وأنت ترفع جثة المرأة التى وفقت فى العثور عليها .

ويضيف رجل من الملتفين حول الأب .

– تلك التى استأجر أهلها قاتلاً محترفًا ليخلصهم من عارها بعد أن دارت سيرتها على كل لسان .

يتنهد الأب ، ويقول بصوت خفيض دون أن يلقى نظرة إلى حماسة الابنة الواقفة على الباب :

– حكموا على القاتل بالنفى إلى جبل سيناء ، وتجرعت أنا من الكأس ذاتها ، وكما تدين تدان .

ويقول الخفراء الذين عملوا معه .

– الرجل اعترف بفعلته .. لم تظلمه .

ولم تؤثر هزيمة الأب العائد على سمعته فى المدينة ، ولا فى الجوار .

تقدم إليها طه الغمراوى فوافق الأب دون تـردد ، ولـم يسـأل البنت ولا أمها فى أمر العريس ، وهى - من جانبهـا - لـم تـرد مراجعته أبدا ، ولا أن تصيح فى وجهه : كيف تربطنى برجـل لـه زوجة قديمة هى أم لأولاده ؟

رحلت فى هودجها ، وبقى الأب فى داره ..

لم يسمح لها بالزيارة على الرغم مما عرفته عن مرضه ، ثـم رحيله . فليس من عادة البدو السماح لعروس بـالعودة إلـى بيـت أبيها قبل مرور الحول .

ولم تسلِّم قلبها لزوجها يومًا ما ..

تنيله حقه الشرعى ، وتحتفظ بقلبها هناك ، تترفع عليه كابنـة مدينة . ويشمخ بأنفه تجاهها كبدوى أصيل .

ظلت تصيح فى وجهه كلما وقع الصدام : ولكنـك الآن مجـرد بائع جاز ، لست بالفارس الشجاع .

- أجدادى كانوا .

- ابق مع أجدادك إلى الأبد .

- وأنت بما تزهين ؟

- أنا حلوة ، وأبى كان شيخًا للخفراء يقول للبلد : نامى فتنام.. قومى فتقوم .

- ثم صار شيخا للمناسر .

- هذه فروسية زمانه ، يأخذ من الغنى ليعطى الفقير .

- ثم صار معتقلا يكسر الأحجار فى الطور .

- ظلم تحمله بشجاعة ، والرجل رحل كما رحل أجدادك .. الآن لم يعد غيرى وغيرك ، فانظر ماذا يمكننا فعله ؟ أرنى رجولتك .

فتهدر طاقة الرجل فيه ..

يجرجر ساقيْه الثقيلتيْن تحت ثقل الخيبة ليمدد لنفسه فرشة صغيرة على الأرض ، وتنطفئ جذوته ، وهى تميل بين وسائدها ، تهدهد طفلها الذى وُضعت بذرته نتيجة حسبة مغلوطة ، حين سمحت له فى مرات قليلة باغتصابها ، يوم كانت له قدرة على الفعل ، بأثر من وهج رغبته فيها .

الليلة يعود إليها مباهيًا بقوته ..

بعد أن رفع الحجر الذى فشل أهل بلدته جميعًا فى رفعه ، دخل من باب الدار بين زفة مهللة تشيّعه بالفرحة والسعادة متمنين له التوفيق فيما هو مقبل عليه ، لقضاء ليلة جمعة مع بنت مدينة باستطاعتها تلقى بذرته حيث تثمر أبناء يتسمون بالجمال ، والجمال عندهم مقترن بالبضاضة وبياض البشرة ، وبالشعر الأسود المنساب بنعومة على الجبهة . فهل يفلح ؟.

دخل عليها وفى ظنه أنه سيمتطى مهرته الحرون ، مصدرا سيفه المصقول فى وجه خصومه ، الصد ، والكراهية .

الليلة سيرفع حجر قلبها إلى أعلى ليشعر بخفتها وثقلها معـــا .
هل وفق أحد فيما وفق ؟.

هو رجلها مهما جارت عليه ، أو تدللت بجمالها .

الليلة يوم صعوده الحقيقى ، وسقوطها المــذل تحــت جناحيّــه المحلقيْن .

وقف على الباب يتأملها ، لم ترفع عينيْها عن ولدها الغــافى ، كأن شيئا لم يحدث ، حمل الولد إلى فراشه ، وجلس أمامها يحــدق فى كل قطعة من جسدها اللدن .

رمت ضفيرتها إلى الوراء ، وشمخت بأنفها تجاهــه ، أمســك كفها العرقانة ، فانتفضت .

هذه هى رعشة الرغبة المكنونة ..

نام على صدرها يدعكه بشعيرات شاربه الخشن ، لم ترفع يدها إلى رأسه كما توقع ، فسعت يداه تتحسسان نتوءات البدن .

كانت تنفخ نارا فى وجهه .

أراد أن يهبط بها إلى أرض الغرفة فتأبّت .

- ماذا تريد بالضبط يا طه ؟

- أريد حقى الشرعى يا شهدة .

- نجوم السما أقرب لك .

واستطاع أن يرفعها كدمية بين ذراعيه .

- أنا قتيلك الليلة .

– حجر قلبى أثقل من الحجر الذى رفعته أمام أهلك وعشيرتك.

مددها على الأرض عنوة بعد أن خلع قميصه الأبيض ، أراد أن يفتح ما بين فخذيْها ، ولكنها ضمتهما بشدة ، تمرغ عليها داعكا وجهه فى أصداغها .

– افتحى .

حركت أسفلها لتهرب من وهج جسده المشتعل .

لم تعد تطيق أنفاسه ، ولا رائحة عرقه المخلوط برائحة الكيروسين .

لم يعد جسدها يطيق ملامسته ، فدفعته إلى الوراء .

تشبث بها ، وثبت قبضتيْه على كتفيها ليمنعها من القيام ، واندفعت دموعه على وجهه ، وتساقطت حباتها على خديْها .

– تبكى كالنساء .

فهرب الدم من سائر بدنه ، وخبا كل شىء فى لحظة ، ولم يتمالك نفسه ، فراح يكيل لها الضربات على وجهها ، ويخربش بأظافره فى لحمها الطرى ، مزق فتحة الصدر ، وعض الشفتيْن والنهديْن بشراسة . فصرخت .

نجحت فى إلقائه أرضًا ، وقامت تلملم هدومها الممزقة ، أراد الإمساك بساقيْها ، بيد أنها فرت منه إلى طاولة المطبخ . تمكنت من قبضة السكين . ووقفت له كنمرة جريحة .

حاول الإقدام والمحاورة ليقتحمها متفاديًا نصل السكين الذى عكس شعلة المصباح .

- إياك أن تقترب منى .
- أنا زوجك .
- أعدنى إلى بلدى .. إلى أهلى .
- هل لك أهل ؟
- أسيادك .

ومد كفه ليقبض على عنقها فصده النصل الحاد ، جعّر طه بأعلى صوت : آى .

وانبثق دم أحمر فوق الحصير .

سقط أسفل ساقيْها ، وتمكن من الإمساك بها ، جَرّها نحوه ، فهوت السكين إلى جواره ، وثب إليه بسرعة وتمكن منه .

قام إليها بوجه يفيض حقدًا ومحبة ، فاندفعت إلى النافذة لتفتح ضلفتها ، مالت بجذعها إلى الخارج .

- إذا اقتربت فسألقى بنفسى .
- أنا فى عرضك .. جربينى هذه المرة .
- لا يمكن .
- هذه المرة فقط .
- على جثتى .
- لماذا يا بنت الحلال ؟
- ستفشل ككل مرة ولن ينوبنى منك غير الوسخ والبلل المقزز.

قبض على خاصرتها ليجرها إلى الوراء .

- الحقونى يا ناس .

كانت يده المجروحة تدفق الدم ؛ فلوثت ثوبها البيتى الخفيـــف . وسقطا معا على الحصير ، يدوران فـــى المكـــان ، ولا يســـتجيبان للطرق العنيف على الباب .

أخيرا اندفع نور بطوله الفارع ولونه الذى أضفى مزيـــدًا مـــن الظلال على عتامة الحجرة ذات المصباح الوحيد .

لحق به عليوة يجر ساقيْه الهزيلتيْن ، ولا يرفع يده من جيـــب سترة العمل التى لا يخلعها ليلاً ولا نهارًا .

كان يريد التأكد من بقاء الإبرة بين الإبهـــام والســـبابة ؛ لأنـــه أضمر شيئا فى الخفاء ، استقر عليه فى حواره السرى مع نفسه .

- سأرضى الحاج مهما كان الثمن .

انشغل نور بفصل الزوجيْن فى عراكهمـــا المريـــر ، وانغمـــس عليوة فى عمله البغيض ، أخرج الإبرة ، وراح يغرسها فـــى رأس الرضيع ، فى تلك البقعة الطرية من الرأس التى لم تلتئم بعد . بكى الولد بوهن أول الأمر ، ثم صرخ بشدة . بعدها لم يعد أحد يسمع له صوتا .

★★★

[شهدة تعود إلى بيت أبيها]

ها هى تقف أمام الباب فارغة من كل شىء ..

تركت بيتها ، زوجها ، ولدها .

إنها خالية تماما ، لا تضع على جسدها غير جلباب بيتى ملون.

الليل سترها ، جلبابها الأسود الذى يحفظ لها حشمتها .. فارقها الحاج أبو المعاطى إلى بيته عائدًا إلى زوجته وأولاده .

وكان قد لحق بها بعد خروجها من الصوالح رافعة رضيعها بين يديها . تبغى الهروب ، حملته ساعية بين الشوارع الضيقة حتى استلمت طريق النهر الذى سيصحبها إلى الجزيرة .

تندفع ببدنها القوى بين أكداس الظلمة ، لا تنظر وراءها أبدًا ، ترفع عينيْها من حين إلى آخر إلى السماء لترى قمرًا مخنوقًا ، يريد الانزلاق نحو حافة الأفق ولم يئن حينه بعد ، تضم الولد إلى صدرها، وتجمعه بين طيات الطرحة السوداء . كان مستسلمًا لنوم عميق نأى به عن أصوات العراك فلم تقع عيناه على فعل أبيه ومقاومتها العنيدة له . لم يشعر بدفع الباب من قِبل رجال الطاحونة، ولا بجعير أبيه فى وجههم ، لم يبك حين رفعته بلهفة إلى حضنها لتهبط به درج البيت ، وتنطلق إلى حيث لا تدرى . كان صامتًا تمامًا . هل هذه وسيلة الطفل للهروب من الحدث المفجع ؟

لم يهتز بين يديها وهى تدفع الحاج حين التقته عند خروجها .

- تعالى يا شهدة .

- ابعد عن طريقى .

- أنا ابن بلدتك أحميك بعينى .

- الله يسهل لك يا حاج .

قطعت شارع الطاحونة متجهة إلى الطريق الغربى ، نحو النهر المؤدى إلى بلدتها . مرقت بين الحقول الساكنة تـدوس بأقـدامها نباتها الذى يطل برأسه من الأرض السوداء ، أحست بـالطين فـى الأرض المروية ، وبالجفاف فى الأرض الشراقى ، وصعدت بجهـد نحو الطريق المرتفع ، القمر يمدها بنور شحيح ، نور أصفر عليـل بلون وجهه الغارب .

« لا بأس » .

الآن استوت على الشـاطئ ، النهـر علـى يسـارها والأرض المنخفضة على يمينها ، لم تدرك أنها خرجت بملابس البيت إلا حين لامستها نسمة باردة خفيفة ، فضمت الطفل إلى صـدرها لتمنحـه مزيدًا من الدفـء .

الولد بارد خالص » .

مررت أصابعها القلقة على وجهه وحول أذنيه ، أحست بمزيـد من البرودة فزحفت بكفها على شعره الناعم ، ولم تلـتقط أطـراف الأصابع النبض الصاعد من هذه البقعة اللينة وسط الرأس . رفعـت

الوجه إلى شفتيها لتطبع قبلة فسقطت يد الطفل إلى أسفل ، ولم تلتقط أذنها همسة النفس الهادئ .

يا خيبتى .

يتردد صدى الصرخة الملتاعة فى فراغ الحقول ، ويرتد إليها مضاعفا كصوت جنى من المردة ، ساقاه على الأرض وجسده فى السماء .

هل تعود .. أم تظل فى طريقها إلى بيت أبيها ؟

الصوالح قريبة لكن بلا ونس ، والجزيرة بعيدة ، ولا أحد يحميها هناك . أُغلق بيت الأب على الصمت المعلق كعنكبوت يتدلى فى أركانه المهجورة .

لم تجد رغبة فى العودة ، فالاتهام هناك صلب كحد السكين . لم تتحمس لاستكمال الطريق إلى المدينة ؛ فاللوم – هناك – يسيل على رأسها مطرًا أسود .

وقعت عيناها على حائط قصير لمصلى تهبط درجاتها الحجرية إلى الماء ، يتكاثف ظلامها بفعل ظل التوتة الممدة فى فراغها ، انحنت على الطفل الميت تدفئ أوصاله على ظن بأن الدفء – ربما – يبعثه حيا .

كان الوجه مضيئا مثل قمر سقط فجأة على عتمة الأرض ، ظلت تتمايل بلوعة على الجسد الصغير ، ضنايا .. » .

كيف تكمل طريقها فى جنازتها الكئيبة ؟ الموت بين ذراعيهــا ، هى المشيّع الوحيد .. سيقولون : قتلته لتقطع كـل صــلة بأبيــه ، وبلدة غربتها .

سيقولون : عشقت رجلا من مدينتها سرعان ما ستعود إليه بعد رحيل أبيها الذى أجبرها على الارتباط به .

كل هذا خارج وعيها ، ولا يدركه عقلها المحدود ، مجرد صبية تحب أباها ، ولا تخالف له رأيًا ، وافقت على أول رجل طرق عليها الباب - على الرغم من أنفها - لأن هذه كانت رغبة الأب .

لم يسأله إذا كان متزوجًا بأخرى ، لم يهتم بأن له أولادًا منها ، لم يهتم بانحيازه المتعصب لجنسه من العرب .

والأهم لم يدرك الأب معاناتها حين كان يقبـل عليهــا كزوجــة شرعية ، لم يلتقط أنفه رائحة عرقه المخلــوط بالكيروســين . لــم يتقزز من بلله ولزوجته . لم يقاوم همجيته حــين تواتيــه الرغبــة الوحشية فينهش لحمها ، ولا يدعها حتى يسيل الدم مــن الشــفتين والأذنين ومن النحر ، ولم يصرخ من وجع التهام الحلمــة بشــغف الكلب المسعور .

وحين تحدته لتكسر رجولته ، استسلم لضعفه وانتقل من فشــل إلى فشل ؛ فكان ينسحب ككلب هزيل إلى ركن من الغرفة ، وينهنــه مثل امرأة فقدت حُليها ، أما هى فتجمع بدنها مرتاحة بــين خيــوط الناموسية المنسدلة على الأركان الأربعة .

جاء الولد ثمرة للقاءات الأولى ..

أرادت التخلص منه فأبى ، تشبث برحمها كعنقود مزدهر .

مد جذوره فى شرايين دمها يمتص منها مادة الحياة لأم تود سقوطه قبل أن تراه ، تصعد إلى الكنبة وتلقى نفسها بقوة ، ثم تتأمل ما بين فخذيها ، لا شىء يسقط .

تحمل الأثقال التى - ربما - تلفظه إلى الخارج ، لا شىء يسقط. غرست أعواد الملوخية فى رحمها ، تجرعت الخمر الرخيص الذى أدمنه الزوج بعد خيباته المتوالية ، والولد معلق فى أعماقها ، عازم على مواصلة الرحلة حتى منتهاها .

« كيف ترحل بعد العشرة ومداومة النظر إلى وجهك الجميل ؟ » « لماذا أتيت إلى الدنيا بعد إصرارى على وأدك ؟» «هل كان ينبغى أن أراك لتظل فجيعتى أبدية؟» .

- ولدى .

وهبطت يد حنون على كتفها .

لم تسمع ضربات الحافر الحديدى لركوبة الحاج . نزل عن حصانه البنى الداكن ، رافعًا العباءة السوداء على رأسه ، ستر بها الأم والولد معًا .

- لفيه من برد الليل .

- برد !! خلاص .

- ألقميه ثديك .. إذا شبع فسيشع الدفء فى جسمه .

- الولد ميت يا حاج .

- لا إله إلا الله ..

لم يدر هل يسعد برحيله ؟ لقد انفتح نصف الطريق إلى بيته الجديد . لم يبق غير أن يرمى طه يمين الطلاق فيخلو له وجهها الحزين .

لكن أبوته رفضت إبداء البهجة . كيف يسعد - مهما كان الأمر - برحيل طفل برئ ؟

قعد إلى جوارها على السور الواطئ لمصلى النهر . مد كفه بين شقى العباءة ليلمس وجه الطفل «حبيبى» «الولد مات منذ فترة» .

ووقعت عيناه على أطراف أصابعه «ما هذا ؟» .

- دم !!

- هل قُتل الولد ؟

- كان نائما ساعة الشجار .. من الذى قتله ؟

- هل قتله أبوه ؟

- لا يمكن .

- لم يدخل علينا غير رجالك يا حاج .

- وما مصلحتهم فى ذلك ؟

- اسأل نفسك .

- أعوذ بالله .

- كيف لرجلٍ حج بيت الله أن يأمر بقتل طفل ؟

- اعقلى يا شهدة .

- كنت على استعداد لضمك إلىَّ أنت وولده .

- ماذا يقول أهل زوجى ؟ بل ماذا يقول هو ؟

- قومى لنعود إلى الجزيرة قبل طلوع النهار ، فلا أمل فى العودة إليها فى هذه الحالة ، أنت فى الجزيرة أكثر أمانًا .

رفعها وهى تضم الولد تحت العباءة إلى سرجه ، وقاد الحصان غربًا متجهيْن إلى مدينتهما فى صراع مع الوقت ، إذا دخلا الجزيرة وهما على هذه الحال فلن يفلتا من الألسنة ومن القيل والقال . امرأة بجلباب البيت تلتفع عباءة سوداء وتحمل طفلاً ميتًا من زوجها الشرعى تمتطى حصان الحاج « أبو المعاطى » . امرأة صارت وحيدة بلا أهل ، لم تكن لتجرؤ على القدوم إلى مدينتها مع عاشق جديد فى حضور الأب . ذلك الفارس القديم حين كان شيخًا للخفراء، ثم شيخًا لرجال الليل الأشداء .

« كم تبدل الزمن !! » .

- وقعت فى غرامك يا شهدة ، ولا أدرى ما النهاية ؟

- عيب يا حاج . أنا فى سن بنتك .

- هنا المشكلة .

- لك زوجة محترمة . ولى زوج على سنة الله ورسوله .

- إذا حصلت على الطلاق فسأتقدم إليك من فورى .

- وزوجتك .

- أطلقها إذا رغبت .

- أنا لا أخرّب البيوت يا حاج .

- فلننتظر رد فعله بعد هروبك منه .

- المصيبة إذا عرف بموت الولد .

- له أولاد من القديمة عوضًا عنه ، المهم كيف سندخل إلى مدينتنا ونحن على هذا الوضع ؟

- دبرنى أنت .

- نمر على المقبرة ندفن الولد ، وندخل الجزيرة قبل صعود الشمس .

وحل الصمت بينهما إلى حين ..

ظلا ينصتان إلى ضربات الحافر الحديدى على الأرض ، تحاول تدفئة الولد على أمل القيام ، والحاج يسير أمامها ممسكًا بلجام

الدابة يجرها فى ظلام الليل يتابع نباح الكلاب من حولهما كلما مرقا بقرية من القرى التابعة لمركز الجزيرة .

عبرا الكثير من الجسور، مرة ذات اليمين ، ومرة ذات الشمال . يخضعان للشاطئ كلما ضاق أو اتسع ، وقطعا الكثير من شوارع القرى الغافية .

قبل أن تطرق آذانهما تسابيح الفجر من مآذن الجزيرة . وقبل أن يقع بصرهما على ضوء المصابيح المضيئة لشوارعها ومنازلها التى تتمطى فى فرشة النوم استعدادًا ليومٍ جديد انعطفا نحو طريق المقابر .

- سأدفنه مع جده .

- أيمكنك التعرف على مقبرته بسهولة ؟

- كيف أتوه عن مدفن يضم لحم الأحبة ؟

دخلا عن طريق المصرف الجانبى ، وحين لمحت الكافورة السامقة قالت له : ها هنا يرقد أبى .

أنزلها عن السرج وهى ممسكة بوليدها تضمه إلى صدرها بقوة، وتجدد دمعها : « حبيب أمك .. » .

حدق فيه الحاج . ثم رفعه بين يديه .

- إنه ينام كملاك صغير .

- أنت طيب جدا يا حاج .

- إنه الغالى ابن الغالية .

فانتشى قلبها للحظة ، ولامت نفسها الحزينة عقبها . هل يعاقبنى ربى لأنى ملت لغير زوجى .. أم أنه يقدّر أمرًا لا يدريه غيره ؟ .

نبش الحاج التراب ، وجذب قوالب الطوب عن عين المقبرة . كان يعمل بجد ، يريد الانتهاء قبل خروج أهل الجزيرة بماشيتهم نحو الحقول القريبة .

وفِّق فى فتح ثغرة معقولة ، أمال رأس الولد نحوها ، ودفعه بحرص إلى الداخل . كانت شهدة بعيدة لا تريد النظر إليه ، والصرخات المكتومة تعتلج فى صدرها المكلوم : ، ما ذنبه ؟ . .

كانت تلهث مرددة البسملة فى صوت خفيض ..

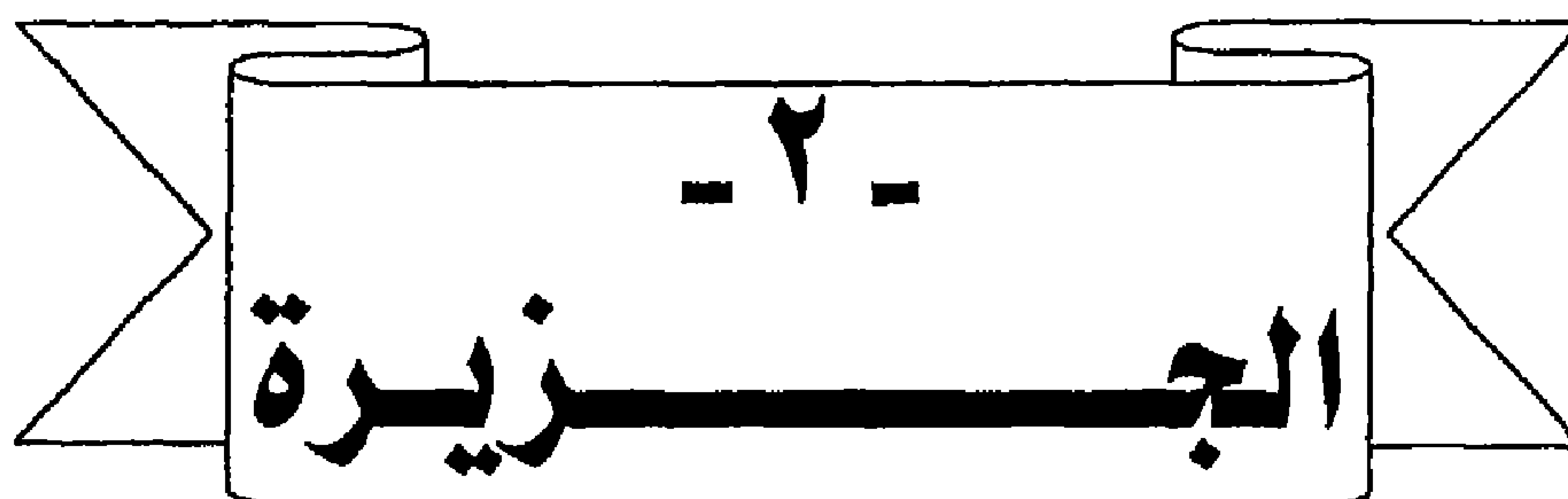
والحاج أعاد الحجارة إلى موضعها ، وكدّس التراب حولها حتى يخفى العين المفتوحة .

وقفا معًا تجاه المصطبة المرتفعة رافعين الأكف إلى وجهيهما يرددان آيات فاتحة الكتاب بقلوب ملتاعة .

هتفت شهدة بصوت عال : سلِّم عليهم يا سعد .

وتلت الآيات بصوت مرتفع ، تلتها بصوت ثابت كأنها فى يوم زيارة عادية .

مد الحاج يده نحوها ليسحبها إلى الدابة المنتظرة على الطريق.


- ٢ -
الجـــــزيـرة

دخل الليل

وكم ليل دخل عليه مُذ رحل الأب .

ينهض الليل من خلف الجدران ، يدفع ظلالها على الفراغ ما بين الطاحونة وأبواب الزرائب .

ها هنا حيث يقعد أبو المعاطى على ركبتيْه يبتعث ذكرى الوالد ، هذا الشيخ الذى انسحب من عراك الحياة تاركا الحمْل على كاهل ولده الكبير ، يقيم فى عزلته التى اختارها لنفسه أمام باب دارد المفتوح ليل نهار، وبين الجدران القديمة المتهالكة أنشأ المصطبة . وزرع أشجار التوت ، وخطط حوض النعناع لينشق رائحة الجنة . يروى عيدانه بماء عذب بعيدًا عن ماء البئر الساخن المخلوط بزيت الطاحونة ، تأتيه نفضات الدخان من ماسورة العادم ، وضربات السيور فى حديد الطارات ، فتهدهد إيقاع جسده ، وتسبح طويلة حين يفيق منها يشهق عاليا ، ويردد بوجل : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا حبيبى رسول الله .

ثم تأخذه سنة من نوم ترخى ذراعه إلى جواره فتساقط حبات المسبحة من تلقاء نفسها بينما تظل شفتاه ترددان أسماء الله الحُسنى كيف هدأت نفسك واستسلمت لعباداتك فى سماحة وطيبة؟

وأنا أتخبط الآن من جدار إلى جدار أنتقل بين الطـواحين ، ويهفـو قلبي لعشق النساء . لم أفلح يوما فى التشبه بك . هل أدين بطبعـى إلى صفات الأم ؟؟ .

امرأة تملأ الدنيا ضجيجا تقهر زوجـات الأبنـاء ، ولا يعجبهـا العجب . أنانية ، أكول ، تفرض عليهم الإتاوة تلو الإتاوة ، بالإدانة مرة . وبالعتب مرة . وبالطلب الحازم مرات .

عاشت عزلتها بإرادتها . تحمم نفسها بنفسها . لا تريد لامـرأة غريبة مطالعة جسدها الكهل ، تغسل ملابسها ، وتصعد الدرج على الرغم من ضعف بصرها لتنشـر قطعها الداخلية فى مكان خفـى ؛ فلا تصير متاحة للآخرين .

وحين تطهو طعامها تشعل موقد الجـاز ، وحـدها ، وتخـرط البصلة . تقدحها فى كمية كبيرة من السمن البلـدى حتـى تشـعر بدرجة اصفرارها . فى وقت معلوم ، تلقى عليها قطع اللحم الكبيرة، وتدلق الماء عليها ثم تمسك غطاء الحلة بيد وبالأخرى تحوم بكفها حول بخارها فلا يتاح لواحدة من زوجات الأبناء بالانقضاض عليها خلسة لتنهب طعامها الذى تلتهمه وحدها فى وجبة واحدة .

عافرت طويلا مع ملاك المـوت ، تقـوم وتقعـد غيـر محبـة للمحيطين بها . تحسدهم على شبابهم الـذى يضـمن لهـم البقـاء دونها .

تدفع بيدها الملعقة الممدودة إليها من زوجة الابن .

مازال الشك يراودها ، لا تطمئن لأحد ، الكل – فى اعتقادهـا – يبغى تسميمها .

استمرت فى شكوكها وتهويلها حتى تغلّب عليها مـلاك المـوت ذات ليلة لما اندفع كريح عاصف من باب غرفتها، لم يمنحها فرصة للمقاومة ، انقض فجأة وأمسك حلقومها ، ظلـت فـى غرغراتهـا وانتفاضتها حتى النفس الأخير ، تضـرب الهـواء أمـام عينيْهـا المطموستيْن ، ثم همد الجسد الواهن فقد وُفق منجل عزرائيل فـى حصد روحها ، وهرب دون أن يلقى نظرة إلى أحد من أسرتها .

يبدو أنه كان – فى قرارة نفسه – عليمًا بذات الصدور ؛ لأنـه أكرمها بسحب روحها الحية من بقايا الجسد ، وأراحهم من عذابات المتابعة . والترقب .

أما الأب ما أجمله ..

كان يومًا مشهودا ، مازالت الجزيرة تقص وقائعه حتى اليوم . هكذا وبهدوء فوق هذه المصطبة ذاتها اختلطت روحه النقية بأنفاس الظل الساقط عليه من أوراق التوت الأخضر .

كان يسبّح وينصت بعمق لأصوات الطاحونة قبل الضحى بقليل ، كأنه تخير صلاة الظهر للحظة رحيله .

جاءه حفيده الذى يلازمه فى جلسات الصباح ، لعب معه لبعض الوقت . ثم قال له : أنام يا جدى .

فأخذه فى حضنه ومال عليه بحنو يطبطب على كتفه ، ثم أدخل كفه تحت جلباب الولد ليدلك بطنه الصغير البارز بكرش طفولى تتوسطه سُرة عميقة الغور .

نام الولد نومة عصفور آمن بين أغصان شجرة عجوز مهجورة. وأيقظه من حلمه الساذج نهيق حمار ، يرفع على ظهره أجولة الحب مقتحما الطاحونة ببهجة التخلص من الحمل الثقيل .

أراد الانفلات من يد الجد فسقطت من تلقاء نفسها إلى الأرض ، وانفرطت حبات المسبحة حين تعثر بها وهو يريد النزول عن المصطبة . نادى على جده ليعود به إلى الدار لم يجبه الجد ، ظل على بسمته الطيبة التى أضفت على لحيته البيضاء نورًا على نور .

صرخ الولد لأنه لم يعتد عناد الجد فى رفض أوامره ، فخرجت إليه أمه لتؤمّن عودته ، ولكن الولد أشار إلى جده فى هلع: جدى.. جدى .

رُفع البدن الناحل إلى فراشه . وجاء الأولاد من حقولهم . وعاد أبو المعاطى من المقهى ، جئ بالمغسّل ، وأرسلوا إلى المدفن من يهيئ العين لاستقبال كبير العائلة .

صُفت الكراسى ، وأضيف إليها كنبات البيت فى الشارع أمام الدار . التم الأهل والجيران بانتظار الانتهاء من طقوس الغسل ليصحبوا الجار الطيب إلى المسجد ثم إلى جنازة تليق به وبأولاده وبالعائلة جميعا .

كان أبو المعاطى بينهم يضع رأسه بين كفيه سارحا فى ذكرياته مع الوالد الذى ترك له عبء الأسرة فى وقت مبكر . صحيح أنه لم يخيِّب رجاءه فقد استعاد حقه فى الطاحونة . بل عمل على امتلاكها نهائيا . وعلَّم إخوته حرفة الطحّانين ثم وسّع فى الملكيــة فابتــاع طاحونة الصوالح ثم باعها بعد زواجه من شهدة .

فى هذه اللحظة بالذات سيفاتح أخاه فى امتلاك طاحونة غيرهــا فى طناح .

سمع صوت الذين تشجعوا فحضروا الغُسل يهتفون بورع : الله أكبر .. الله أكبر .

ثم جاءه صوت الحانوتى وهو يطل عبر قضبان النافذة : يا أبــا المعاطى .

وقف المشيعون رافعين سبابتهم جهة الغرفة يهللون ويحوقلون لما أتاهم صوت الكركعة التى تردد صداها فى المكان ســابحة مــن النافذة إلى فضاء الخارج لتسمو فى طهرها بين حرم الطاحونة ، ثم فوق أسطحها ، وترقى إلى السماء كهيئة سحابة بيضــاء اتخــذت لنفسها ملامح الراحل .

دخل أبو المعاطى الغرفة فوجد جثمان الأب عاريًا تســيل مــن جوانبه رغاوى الصابون ، والوجه ظل محتفظًا ببسمته تنطلق مــن داخله كركعات وقور ، ثم تهدأ للحظة محتفظًا بالبسمة بــين ثنايــاه

المغضنة للحية مبللة بماء الغُســل والشارب المحفوف يمنح جـــلالا لا يحيط به القلب المحب .

جر أبو المعاطى المغسّل من كمه المشمور : لم يمت بعدُ .

– استغفر الله .. الجسد ميت ، ما تراه هو فعل الــروح التـــى اطلّعت على ما ينتظرها فى الجنة .

– أبى حى .

– أبوك شبع موتا ولكن الله سمح له بالنظر من طاقة صـــغيرة على مجلسه فى الجنة .

ثم هدأ كل شيء فجأة ..

لم تتكرر الكركعات وإن احتفظ الوجه ببسمته البهيـــة ، فأكمــل الرجل عمله ، وعاد أبو المعاطى إلى الجلوس بين الرجال بانتظـــار خروج الأب محمولا على الخشبة ليصحبه إلى مثواه ، فى الجانـــب القبلى من مدخل الجزيرة .

ظل مستغرقا فى ذكريات أيام الرحيــل حتى أقبل عليه أخـــوه أبو العلا يتخبط بين كتل الظلام التى بدأت تتدحرج ما بــين حــائط الطاحونة وأبواب الزرائب المفتوحة ؛ حيث خرجت النســوة لحلــب الماشية بعد عودتها ببطون شبعى من أرض العائلة .

★★★

[شهدة من بيت إلى بيت]

قال له أخواه : تذهب لتضيف إلينا طاحونة فتعود بامرأة .

– هذا أمر الله .

– وكيف تركت رجالنا هناك ؟

– سيعودون إذا تمكنوا من ذلك .

– وقد يشعل أهل الصوالح النار فى الطاحونة .

– لن يجرؤا .

وابتاع لشهدة بيتاً لأنها رفضت الالتحاق ببيت العائلة أقامت بين جدرانه وحيدة تنتظر أوبته إليها فى الليالى التى قسَّمها بالعدل وفقا لشرع الله .

ستقضى بقية أيامها فى ونس أنجالها منه ، سيوسع فى البيت ، يضم المساحات الواسعة على الجانبيْن ليجعله بيتًا كبيرًا تُفتح أبوابه على شارعيْن ، وتطل جوانبه على فناءيْن ، ينقل الزوجة الأولى بأولادها الكبار إليه ، ويوزعهم على غرفه العديدة ، للضيف باب مستقل مفتوح على الجهة البحرية يمر عبر ظلال التوت ، والقراندة المبلطة إلى حجرة الضيافة التى تتسع لطاقميْن من الصالونات ذات الكراسى المذهبة .

على هذا الباب وقف يومًا بكامل هيئته الفخيمة ، واصطف أولاده حوله بانتظار المفتش الذى قدم بـ «كارتة» الوسية حابكا

الطربوش الأحمر على رأس صغير يبُك الدم مـن وجنتيْه اللتيْن ترفعان فردتى الشارب المرهفتين .

هبط سلم (الكارتة) بسنده الحوذى الأسمر ، ودخل بين أبناء العائلة وهو يضرب يمينا ويسارًا بمنشة على هيئة ذيل حصان .

تقدم إليه أبو المعاطى مرحبًا .

- أشرقت الأنوار .

- أهلا يا حاج .

وأدخله المضيفة ثم لحق به رجاله من أفندية التفتيش .

هذا الرجل هو الذى يدير أملاك البرنس حليم باشا طوسون أحد أبناء الأسرة المالكة .

فى هذا الوقت ذاته من كل عام يهيئ الأعيان لدخول مزاد الأرض . فيُدعى إلى موائدهم ليعاونهم فى إرساء المزاد عليهم دون المنافسين من البلدات المختلفة ، وهذا العام يريد أبو المعاطى الدخول فى المنافسة . فعرف الطريق ، وأدرك الطريقة التى تساعده فى الوصول إلى غرضه .

بعد أن امتلأت معدة المفتش من أطايب الطعام الذى هيأته له الزوجتان فى حال من المصالحة المؤقتة، واحتسى الشاى والقهوة. وتناول أكثر من ثمرة فاكهة ، ودخن طقمين من الحشيش ، قال : دع الأمر لله يا حاج .

- البركة في سعادتك .

- سأعمل جهدى .

وحصل أبو المعاطى على مربع كبير من الأرض ، تصل مساحته إلى الخمسين فدانا خالصة له ، دون إخوته .

وامتنانا لله بتوفيقه فى الوصول إلى غرضه جرف سطح الأرض من التراب الأسود الخصب ، وأقام قمينة كبيرة لينجز الآلاف من قطع الآجر التى تبرع بها لتأسيس مسجد للحى ، ونادى للشباب . وجمعية لتحفيظ القرآن ، ولم يفكر قط فى تشييد بيت له ولأبنائه من الطوب الأحمر .

البناء بالطين أفضل بكثير .. إنه يقى من حر الصيف ، ويمنح الدفء فى الشتاء . هكذا كان يردد أمام الأبناء حين يوجهون له اللوم .

بعد ثورة الضباط وجد فى استطاعته شراء عزبة صغيرة ، ابتاعها من رجال الباشا برخص التراب . الباشوات يطلبون أى سعر . إنهم يريدون الفرار قبل التأميم .. عرض على إخوته المشاركة فرفضوا ، واكتفوا بنصيبهم من أرض الإصلاح الزراعى .

تراكم المال من إيجار الأرض وضاعف ثروته فابتنى لنفسه بيتا فى العزبة ، ألحق به حظيرة ، ومناحل ، ومخازن للحب والتبن ، وأسس مسجدا صغيرا لأهل العزبة ، هؤلاء الأجراء الذين التحقوا بالعمل فى أرضه ، على الرغم من النزاع على امتلاك بيوتهم الفقيرة .

نقل شهدة هناك ..

وظل يقضى معها أيام العمل بالأرض ، ويقضى مع الزوجة الأولى أيام العمل بالطاحونة .

قال له أبوه : حيرت نفسك .

فأجابه ببسمة وقور : بفائدة أم من دونها ؟

– ربنا يوسع فى رزقك .

– أنت بركتنا .

– راع إخوتك .

– هل اشتكى منهم أحد ؟

– المهم افهم كلمتى . أخاف أن تكون فى النفس مرارات .

– الخير يعم على الجميع .

ورحل الأب وهو راض عنه ، وبقيت الأم تعارك طوب الأرض . لا ترضى عن أحد قط ، تحركها وساوسها وشكوكها فى كل من حولها ،الكل يحاول سرقتها ونهبها ، ساخطة دومًا ، وأكبر شارب فى العائلة تزعق فى وجهه حتى أبو المعاطى تنادى عليه : يا ولد .

تهدأ لبعض الوقت إذا اشترى لها كسوة جديدة ، أو إذا مد إليها يده بالمال الذى تطلبه ، لا تشبع أبدًا مهما أرسل إليها نصيبها من اللحم ، تفحصها جيدا ، وتقلّب فيها ، ثم تلقيها فى وجه عليوة : قل له كف عن الدس فى فروج نسائك ، واسأل عن أمك .

يبتسم عليوة ببلاهة ، يترك اللحم فى لفته من الورق السميك ، ويعود إليه لا ينقل ما سمع فقد اعتاد سخطها ، وسبابها ، وهو يعلم أنها ستنقض عليه لتغسله ، وتشعل له نار الموقد ، تسقطه فى الماء المغلى بعد خرط البصلة ، وترش عليه الفلفل الأسود المدقوق، وحفنة من الملح .

تقبع أمام الإناء الذى يغلى ماؤه ممسكة بقطعة القماش .

تتحسس غطاءه من حين إلى آخر ، وتخرج القطعة بعد القطعة لتلتهمها ساخنة .

يدخل عليها ولدها أبو العلا رافعا بين ذراعيه فاكهة الموسم .

– صباح الخير يا امه .

فلا ترد عليه .

تدير وجهها بعيدا عنه متبرمة ، يبتسم بينه وبين نفسه ، ويكون قد هيأ نفسه للإسطوانة المعادة .

– خدى يا امه .

– ما هذا ؟

وتتحسس الثمرات بشراهة .

– فاكهة .

– ياما جاب الغراب لأمه .

- إذا طلبت عينى فلن أتأخر .

- كلام .. تأتى إلىّ بما يفيض من عاهرتيك .

- والله اشتريته من الدكان مخصوص .

- أعطه للجديدة لتخدم عليك فى الفراش جيدًا .

أراد مداعبتها فقهقه عاليًا .

- ولماذا الجديدة يا امه ؟

- الأولى راح عليها .

- والله كلهم على حد سواء .

أما يونس فله معاملة خاصة ، فهو ولدها الحبيب على الرغم من أنه لا يعطيها إلا القليل ، كانت تكرمه بصحن الطبيخ ، أو بما جاد به أخواه من لحم وفاكهة ، تأخذه إلى غرفته .

- رُم عظمك يا حبيبى .

- كتر خيرك يا امه .

- نفسى أفرح بك .

- كله بأوان .

- اختر وأنا أجوزك أكبر هانم فى البلد .

- بلدنا عديمة الهوانم يا امه .

- أريدها بنت أصل ، ولا تغلط كأخويك .. سارا وراء نزواتهما؛ فربطا نفسيهما بمطلقات لا خير فيهن .

- كل حي يحصل نصيبه .

- ربنا يعلم .. أدعو لك كل لحظة ببنت الحلال التي تصون شرفك وتعلى من مقامك .

فيأخذها تحت كتفه فتستسلم له بوداعة لا يعرفها الآخرون عنها. أمام الناس وجه جهم ، لا يرضى عن شيء مما حوله ، ومع يونس لينة منبسطة محبة لولدها الصغير . ولم يبك - عند رحيلها - غيره .

كان يضرب الأرض بحذائه الطويل ذى الرقبة ، ويصرخ كطفل يخاف اليتم بعد الفراق .

★★★

[عليوة بين البيتين]

استجاب عليوة لطلب الحاج « أبو المعاطى » .

- قب واغطس وهات لى عمك « أبو العلا » من تحت الأرض .

- حاضر .

غادر مكانه أمام حجرة الميزان ، قال لنفسه : « ابدأ ببيت الزوجة القديمة » .

أمسك باليد الحديد وطرق طرقتيْن ، جاءت زوجة « أبو العلا » من عمق الدار متلهفةِ ، واربت الشراعة مخفية جانب وجهها في الطرحة البيضاء .

- نعم ؟

- الحاج بيسأل عن عمى . أبو العلا . .

- خرج من الصبح . ولا أعرف أراضيه .

صمتت قليلا . وفكرت فى استعمال الولد لغرض فى نفسها .

- شوفه فى البيت الثانى .

تركها عليوة واقفة وراء الشراعة ترقب الشارع ، ومال إلى اليمين مرددا مقطعا من أغنية لا معنى لها ، كان يصفر بجانب فمه، ويحرك أصابعه ليعزف على آلة وهمية .

قطع مساحة واسعة تمتد أمام مقام صغير يتوسطها ، هز يده بالتحية للرجال الساندين ظهورهم على جداره الواطئ .

فلم يهتم أحد بالرد على تحيته ، ظلوا مشغولين بحديثهم يتمطعون ويمدون أجسادهم فى كسل ، ويقاومون تثاؤبة يخشون الاستجابة لها ؛ فتأخذهم سنة من النوم تلجؤهم إلى إعادة الوضوء قبل صلاة المغرب .

لم يحفل بإهمالهم له ؛ فقد اعتاد على ذلك . لا أحد يأخذه مأخذ الجد . ولا يضطر أحد إلى التعامل معه كرجل حقيقى . هو مجرد أسطى صغير يرتدى حلة تجمد نسيجها من الزيت والغبار ، وتشبعت مسامها بذرات الدقيق . يضع على جسده حلة الأسطى

ولا يؤدى عمله بين العدد والآلات . جعله الحاج لا يفـارق حجـرة الميزان ، يحط الأحمال أو يرفعها عن الدواب وعن رؤوس النسـوة من الزبائن .

تعلم من نور أشياء أولية ..

كيف يضع الزيت فى المضخة ؟ كيف يمسح بالــ (أُسطبة) حول الموتور والدينامو الموصول بالبطاريات السائلة ؟ كيف يضيف إليها (ماء النار) ويربطها بالوصلات ؟ وكيف يكشف عليها ليعرف مـا إذا اكتفت بالشحن .. أم يبقيها حتى تمتلئ ؟ يستقبل خـدم البيـوت من النساء والرجال أول النهار ، يضعها على رؤوسهم فـوق أرض ناعمة التربة ، نظيفة ، خالية من أية شـائبة ، يربطهـا بمشـابك معدنية متصلة بالدينامو الذى يستمد حركته من دوران الطاحونة .

ويعود الخدم مرة أخرى ليرفعوها على رؤوسهم بحرص .

فى البيوت يمدون إليها أسلاك المذياع الكبير المضئ الواجهـة ليقضوا الليل فى ونس الأغنيات الرائعة لأم كلثوم وعبـد الوهـاب وصالح عبد الحى ، وبأصوات كارم وعبد الغنى وفوزى .

وقف عليوة أمام بيت حجرى قديم منزوع المحارة ، دار حولـه حتى وصل إلى بابه الوسيع ، ضرب السقاطة الحديدية لم يجب أحد على طرقاته ، عاود الطرق ، ولا مجيب .

خرج إليه صاحب المحل المواجه .

- صدعت دماغنا .

- أسأل عن عمى أبو العلا . .

- الست خرجت من بدرى .

عاد بظهرد ليخرج من الشارع الضيق ، مرّ على عدد من الدكاكين المفتوحة . تتوزع بضاعتها على الناحيتين فلا تترك مساحة لمروق سيارة (كارو) .

وصعد إلى الشارع المتجه نحو المحطة .

كان يبتسم للنسوة من زبائنه الجالسات على عتبات الدور ينادين عليه بود .

- تفضل يا عليوة .

- تعيشى .

وتضطرب سيقانه من الخجل ، إنه - أخيرًا - يجد من يحييه ، ويهتم بأمره والله النسوان أجدع من الرجالة » .

ولا رجل قال لى تفضل ، ولو عزومة مركبية » .

وحدث نفسه فى السر . أنا لا أستطيع مجاراة الأسطى نور فى التحدث إليهن ، هو يداعبهن ، ويتجرأ فى قرصهن من الكتف مرة ومن الصدر مرة . وهن يتدللن عليه ، يضربن كف يده بحنو . حين أصل إلى مقعده أمام (القادوس) سيكون لى شأن آخر معهن . لن

أترك واحدة منهن فى حالها ، سأسحبهن جميعا إلى الزريبة وفين يوجعك . خلينى فى حالى الآن ، يكفى الملامسة عند الحط والرفع ، وأملى فى الله كبير ، أن ينسى الحاج فعلتى مع البنت العبيطة لأبدأ من جديد .. » .

وتنهد عليوة وهو يزفر لهبًا من صدره .

« التساهيل بيد الله .. » .

دخل ضجة ميدان المحطة ، وانحرف يمينًا ليمرق أسفل البوابة الحديد المشرعة فى السماء ثم اتجه يسارا إلى المقهى الذى يفضله أبو العلا . يأتى إليه كل صباح يبتاع الجريدة ويجلس بين أصدقائه من أعيان البلد ، يتبادلون الحديث فى السياسة ، وفى شئونهم الخاصة . أسعار القطن والقمح ، أجرة الفواعلية التى تتضاعف يومًا بعد يوم .. انسحاب الأجراء من (المرابعين) لحرفة التشييد والبناء . تمكين عبد الناصر المستأجرين من الأراضى حتى صار المالك يعانى الفقر ذليلاً حانقًا يواجه صلافة المستأجر الذى يصيح فى وجهه : « عبد الناصر خلاّها اشتراكية .. اصبح » .

يكتفى بجلسة الصباح إذا كان دوره على الميزان ، أما إذا كان خاليا وصار الميزان من نصيب « أبو المعاطى » فإنه يعاود الجلوس على المقهى بعد قضاء قيلولته التى لا يستغنى عنها صيفا ولا شتاء.

قد يعود إلى داره القديمة إذا كان أسبوع الحاجة بعد ارتباطه بزوجته الجديدة ، يتناول غداءه معها ، ويقضى قيلولته إلى جوارها. ثم يأتيها ليلا بعد أن يحتسى كأسين فى خمارة طناش التى هجرها مضطرا تاركا أملاكه من الأراضى الزراعية والطواحين ومحلات البقالة لرجل من أتباعه ، وهو بدوره لم يحسن إدارة هذه الأعمال فراح يعرضها للبيع الواحدة بعد الأخرى ، والبركة فى أبو المعاطى ما إن يسمع بالمزاد حتى يهرع إليه ليرسو عليه فيضيف جديدا من الأراضى والطواحين .

وقعت عين عليوة عليه جالسا بين الرجال ، يلف عمامته الزاهية . يضع ساقا على ساق فيبدو حذاؤه برقبته الطويلة ذات الأستك السميك لامعة فى ضوء الشمس المائلة نحو المغيب . يرفع نظارته الغليظة ليقرأ ورقة سحبها من حافظته السوداء المربوطة بسلسلة فضية فى حلقة الصديرى ، والرجال من حوله يميلون نحوه فى دائرة حميمة ينصتون إليه .

تقدم عليوة ليلقى السلام ، لم يلتفت إليه أحد من الجالسين ، ظلوا على إنصاتهم مستغرقين فيما يتلوه عليهم فى همس لا يخرج عن حيز الآذان المنصتة .

حين انتهى أبو العلا وأعاد النظارة إلى وجهه لمح جرمه فى الحلة القذرة .

- أيوه يا نيلة ؟

- الحاج أرسلنى إليك .

- الأوامر العسكرية عمت البلد كله .

- ما على الرسول إلا البلاغ .

- عملت روحك رسول يا نتن .

- قال لى بسرعة .

- سآتى وراءك .. امش .

وانسحب متفاديا القهقهة التى علت رصيف المقهى .

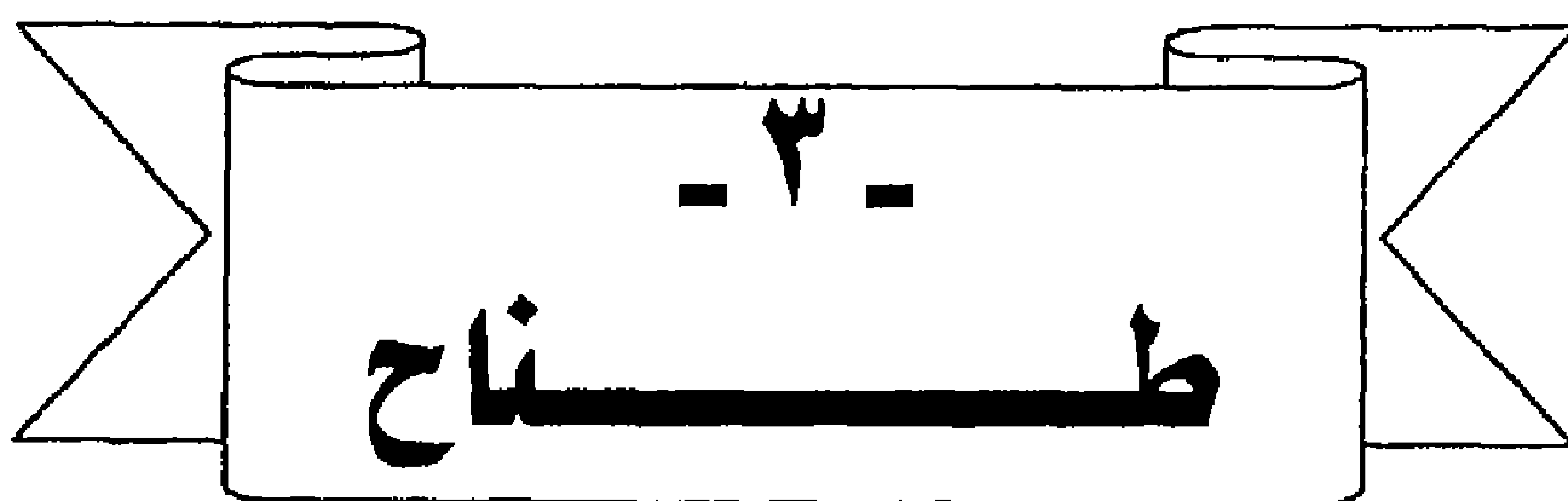
تخبطت قدماه فى بقايا الأسفلت المقلقل ، وسرح فـــى الإهانـــة التى ستلحق به إذا عاد إلى الحاج من دونه .

كادت السيارة تدهمه ، غير أنه انتبه فى اللحظة المواتية .

انتظر طويلاً على ناصية الشارع حتى رآه عائدًا .

حين دنا منه بالقدر الكافى أسرع الخطو ليكـــون قدومـــه إلـــى الحاج فى الوقت المناسب .

★★★


- ٣ -
طـــــناح

رؤيا (أبو العلا)

رأيتنى أسير فى شارع ضيق مظلم ، أسمع خطوات هينة تزحف ورائى كلما أدرت وجهى إلى الخلف ، لا أرى أحدًا ..

أقطع الشارع بهمة وكأننى على موعد مصيرى .

لا أصدق نفسى أننى سألتقى بمن وعدت ، الخطـوات تـدنو .. وتدنو .

ولا أعيرها التفاتا .. تدنو حتى أسمع اللهاث فى أذنـى . هـذه المرة الصوت صار قريبا جدًا ، وملموسًا .

وفجأة أجد ذراعى فى قبضتيْن خشبيتيْن ، لا روح فيهما .

ويقف أمامى وجهان يبخان اللهب من ألسنة وهّاجة ، أتعـرف على الوجه الأول للحاجة ، والوجه الثانى لزوجتى الجديدة . قالا فى نفس واحد : سنشعل النار فى جسدك قبل الذهاب إليها .

ورددتا قهقهة عالية ، انطلق صـداها ليغطـى علـى ضـربات الطاحونة التى تغلق الشارع .

دفعتهما على الجانبين ، وأسرعت لأتفادى الشرر المتدفق على الجانبين . كان الجسدان يتقلبان فى اللهب ، وأنا أجرى إلى طريق معلوم .

خارج كل البيوت ، رأيتها تقف على درج رخامى ناعم تفرد ذراعيها مرحبة .

رأيت قسمات الجسد البارع بين شفافية القميص الذى يبدى مفاتنه .

أغلقت علىّ الباب ، وأومأت بإشارة غامضة ، فانهالت علىّ أبدان كثيرة ، تخرج من غرف لا حصر لها ، داروا حولى بطرابيشهم الفاقعة الحُمرة ، يهمهمون بأصوات لا معنى لها ، يدفعون فى وجهى عصيًا من الأبانوس الأسود اللامع .

كانوا جميعا يرتدون حُللاً سوداء تنتهى ببيونات مربوطة على الصدر .

لما رأيت الطرابيش مكبوسة على مكان الأعناق المبتورة حاولت الهرب ، وناديت عليها : شاهى .. يا شاهى .

كانت تكركع بغُنج وهى مطلة من سور الدور الثانى .

★★★

[إلى طناح فى قطار الدلتا]

ها هنا يبدأ خط القطار .

رصيف منخفض وطويل عليه مظلة سقطت أخشابها القديمة فتكشف الظل ، أمام شمس الضحى القوية ، لم يتبق من المظلة غير هيكل حديدى صدئ ، يقف المسافرون حوله ، يراعون أحمالهم من القفف والمقاطف والأجولة بينما – هناك – بآخر الرصيف يمسك تجار الماشية بأحبال البهيمة التى تُرفع على لوح خشبى سميك إلى عربة لها سور خشبى يصل إلى ركبة الرجل ، وبطن العجل أو الفحل المسحوب إلى سوق (طناح) الأسبوعية .

المحطة تمتد بعرض حديقة طناش من الجهة الشرقية . كان قبل أن يغادر البلاد قد أسس لنفسه بيتًا ريفيًا على الطراز الأوروبى له قرميد أحمر يهبط إلى الجهتيْن ، ومدخنتان فى الجهة القبلية ، واحدة ترسل إلى السماء دخان المدفأة فى الشتاء ، والأخرى روائح الطبيخ على مدار العام .

جعل البيت فى المنتصف تمامًا ، له مماشٍ مفروشة بزلط صغير ملون ، بؤرتها البيت ثم تتوزع ، وتتباعد إلى الجهات الأربع بين أحواض الزهور التى يتضوع عطرها مع رائحة الريحان والنعناع البلدى .

وتسورها أشجار الفاكهة من كل صنف ، أما السور الخارجى فمشدود بسلك شائك تحميه أشجار العبل الصغيرة حيث تصفر فيها الريح فى مواسمها النادرة .

الآن صار البيت مهجورا بعد أن تركها لرجله عبد السلام الذى آلت الأملاك إليه ، لم ينقل الرجل أسرته إلى هذا القصر البديع ، اكتفى بالإقامة فى شقة فى البيت الحجرى المشيد فى الشارع التجارى حيث الخمارة ومحل البقالة .

سيفكر فيه يوما ويطرحه للبيع فهو غير معتاد على حياة القصور . ثم إن طناش نفسه حُرم من العيش بين ردهاته الواسعة وغرفه المؤسسة بأحدث طُرز الأثاث ، جلب هذا القصر الشؤم لصاحبه ، ما إن انتهى من بنائه وتأسيسه حتى قامت ثورة الضباط، فاضطر الرجل إلى جمع المال على وجه السرعة قبل أن يلحق به التأميم : فحياته صارت مهددة فى أجواء العداء لكل ما هو أجنبى .

باع من الأرض والطواحين على قدر المستطاع وبأى ثمن متاح، وفرّ عائدا إلى بلاده ، كما ترك – عن طيب خاطر – المحل والخمارة لعبد السلام المنصورى ، ومنحه توكيلاً شكليًا بحق التصرف فى الأملاك الأخرى، على أمل العودة بعد أن تهدأ النفوس، كان يزعم لنفسه أن هذه الثورة هى مجرد انقلاب محدود ، سرعان ما سيعود الضباط إلى ثكناتهم ، ويستمر الأمر على ما هو عليه .

طالت المدة ، فلم تكتب له العودة ، وصار الانقلاب ثورة شاملة وطالت كل مناحى الحياة المصرية . سقط كبار الملاك وأُممت مصانع كبار الرأسماليين .

وها هى الحرب تشتعل بين مصر والقوى الاستعمارية الأوروبية ممثلة فى إنجلترا وفرنسا مع الاستعانة بالاستعمار الاستيطانى الذى احتل فلسطين ، وقدم بقواته من جهة الشرق ليهدد الملاحة فى قناة السويس .

إذن لا أمل فى العودة ..

وتمكن عبد السلام المنصورى من أملاك الخواجة بوضع اليد ، وهو الرجل الذى لا يمتلك عقلية تجارية كأبناء أوروبا الذين اقتحموا البلدان المصرية من العاصمة حتى أصغر قرية فى الوادى والدلتا ، طرح الأملاك فى المزاد حتى يجنى منها إيجارًا يؤهله لحياة رغدة . أو يطرحها للبيع إن أمكن .

صعدت طبقة جديدة ممثلة فى الإخوة الذين بدأوا حياتهم كفلاحين أجراء ، نجح كبيرهم فى الاستيلاء على طاحونة آل خليفة بعد أن علم بأسهم والده فيها دون أن يمنح مقابلاً لأموالهم التى دفعها على دفعات من أجل الحفاظ على بقائها . آلت إليه الطاحونة بعد كفاح مرير مع هذا الفرع من العائلة الذى فشل فى الحفاظ على ثروته لفساد أخلاقهم ، سواء بقضاء الليل فى السُكر والعربدة فى أماكن أعدها الخواجة بهدف المتاجرة ، أو بالعبث بالزبائن من النسوة ، حتى صارت المرأة الشريفة تخشى على نفسها منهم ؛ لا تذهب بطحينها إليهم ، ولا يوافق زوجها على تركها وحيدة فى هذا المكان الموبوء .

كل يوم واقعة تتناقلها ألسنة الناس ، آخرها كانت مع ابنة رجل من أقاربهم ، سحبها أحد رجال آل خليفة إلى مكان خفى عند ماسورة العادم ، رفع عنها شاشها ، وأراد مواقعتها ، وهى تميل على البطارية التى تداوم على شحنها فى دينامو الطاحونة .

صرخت البنت فتجمع الزبائن حول رجل لم يتمكن من جمع سرواله الذى انتشر خارجه ذكر نافر ، عاجز عن الهمود ، ظل يلاحقها فى حضور الناس ، لا يأبه للجمهرة من النسوة والرجال الذين تجمعوا حوله . سيطرت عليه شهوته وغلبت على كل أمر . كانت البنت مشغولة بستر نفسها عن عيون الرجال الذين وفقوا فى خلعها منه ، ودفعوها خارج الحجرة .

حين سمع أبوها بالخبر جاء رافعًا قضيبًا من الحديد ليهشم رأس من أراد اغتصاب ابنته ، ولكنه لم يفلح ، فقد انتبه الآخر وأمسك بيده ، وراح يلف ذراعه حتى همد ، وسقط منه القضيب على الأرض ، انحنى عليه ليأخذه بكلتا يديه وبضربة واحدة صائبة فلق رأس الرجل ، فترنح متخبطًا فى الحوائط من حوله ، يقطر الدم على كتفه ، ويسيل على عينيْه ، ثم شاربه ، ويندفع إلى صدره المكشوف ، ثم سقط على وجهه ، وهو ينتفض ، ينتفض حتى خمد الجسد تمامًا .

صعد أبو العلا درجات القطار ، ثم لحق به أخوه يونس وابن أخيه فرج .

ظل مستغرقا فى التفكير بينما عينه تقلّب فى مشاهد الخـــارج .
هل يفشل فى مشروعه الجديد كما فشل أبو المعاطى فـــى طاحونـــة (الصوالح) ؟.

أراد خوض التجربة دون وصاية من أحد .

يكفى الأخ الأكبر الإشراف علـــى الأرض الزراعيـــة وطاحونـــة (الجزيرة) فليبدأ هو بمعاونة أخيه الأصغر يونس وابن أخيه فرج .
أصر والده على دسه بينهما « ربما يكون عينًا علينا ، ينقــل إلـــى أبو المعاطى » الأحداث أولاً بأول » .

وماذا يمكن أن يحدث هناك ؟ » .

لا رغبة لى فى النساء ، ولا أريد المزيد منهن ، معى زوجتان: الأولى أم الولد والبنت ، والثانية ، أرملة جميلة ، كل واحدة منهمـــا تريدنى خالصًا لوجهها . هل يعقل هذا ؟.

إننى أعدل بينهما على سنة رسول الله ، نصف الأسبوع للأولى، والنصف الآخر للثانية ، ولكن أم الولد لا تدعنى فى حـــالى أبـــدا ؛ ترسل ولدها الوحيد ليتنصت علينا من النافذة المنخفضـــة ، وينقــل لأمه لحظة دخولى إلى بيتها (أعنى بيت زوجها الذى آل إليها بعــد رحيله المبكر) متى أشعلت المصباح ؟ ومتـــى أطفأتـــه ؟ وأمـــه – هناك – فى بيتها تتقلب على جمر الغيرة ، يقص عليها ما يوافــق مزاجها الحاد لينال رضاها المستحيل ؛ وكى يحصل منها على المال الذى يمكنه من سهرات الحشيش مع رفقاء الليل .

وعند العودة إليها تقلب سحنتها وتبالغ فى تزيين نفسها بالملابس الجديدة ومساحيق الوجه المتاحة لزمانها ، وترهقنى بمطالب البيت . وترمى الكلام الجارح لتستثيرنى .

- ماذا يعجبك فى هذه اللعوب ؟

- جميلة وصغيرة السن .

- قضت على زوجها قبل الأوان ، والدور عليك .

- لا تخافى علىّ .

- وهل أبقت فيك ما يصلح لليلتنا ؟ .

- انتظرى لترى .

وتعد له مائدة دسمة يستعين بها على هدر طاقته .

لكنه يفشل معها ككل مرة ، تلم أطراف ثوبها ، وتجلس على حافة السرير تعانى الحسرة .

- اذهب إليها ربما تجد معها فنوناً لا نعرفها .

وهو يؤكد لنفسه أنها بالفعل امرأة مغناج تبعث الحى من الميت. وترسل إلى الجسد دفعات ممتعة تستنهضه ؛ فيستعيد عافيته. وكأن الشهوة هناك خامدة تحت رماده ، تنفخ فيها من روحها : فتتلظى . وتتوهج نارا ، لا برد لها ولا سلام .

إنه فى حيرة من أمره ، مع الأولى وخامة ، وملل ، وجسد مستهلك ، لكنها أم الأولاد المنسوبة إلى عائلة لا تقبل - بأية حال - طلاق ابنتها بعد هذه العشرة .

ومع الثانية مدد لا انقطاع له ، تنتبــه كــل حــواس جســده ، ويستحلب المتعة من أعمق بئر متاحة ، ولكن لا ولد لها ، وطلاقها سهل . فلا عائلة تصدد ، ولا موانع تحول دون الفرار منهــا فــى الوقت المناسب .

الأولى هى السكن والحياة المطمئنة ، يسيّجها الاحترام والوقار، وامتداد النسل ، والثانية حياة من لهب دائم حــين يســتنفد الجســد مباهجها تتسرب من الذاكرة حتى تستعاد مع النزوة المواتية . ماذا يدبر له القدر فى البلد المجهول ؟.

. لننتظر ما قد تبديه الأيام المقبلة . .

وسلم بدنه النشط لهدهدة القطار ، يلقى نظــرة إلــى البيــوت المتناثرة عن يمينه تاركا أخاه «يونس» وابن أخيه «فــرج» علــى الكرسى المواجه يرقبان حركة الركاب ، وسعى الناس تحت المرتفع الذى يسير عليه القطار فوق أرض رملية نظيفة تتخللها قطع الزلط التى تمنع اهتياج الغبار .

القطار يصفر ويصــفر يحــذّر العــابرين أمامــه باســتهتار ، والوقّادون فى القاطرة الأمامية لا يكفون عن إلقــاء قطــع الفحــم السوداء المطفأة فى الموقد ؛ فتلتهب وتبعث اللهيــب إلــى خــزان البخار الذى يدفع المكابس ، وينفض الدخان الأسود عبر ماســورة قصيرة واسعة تملأ سماء الجزيرة بلون الهباب . وتنثر على أرضها

بين القضيبين جذوات الفحم ، يقبل عليها الأهالى بعد خمودها يملأون بها المقاطف ، وتخزن هناك فى البيوت لاستعمالها فى الطهى أو فى مواقد الشتاء .

صرّت عجلات الحديد بقوة . وانطلق منها الشرر على الجانبين، ألقى أبو العلا نظرة إلى الأمام ، كما قام فرج الشاب ليرقب ما يحدث . فقال له عمه .

- القطر طالع لفوق ليعبر كوبرى البحر .

فرج لم يكتف بالإجابة ظل ملقيًا بنصف جسده عبر النافذة حتى تراجعت أمام عينيه الأعمدة الحديدية المهولة تتدلى منها جنازير غليظة ترفع كرات ضخمة .

- كور كبيرة خالص .

- الظاهر أنها مهمة فى توازن الأحمال .

بعد أن قطع القطار الكوبرى بالعرض بدأ الهبوط إلى الأرض الزراعية المنبسطة ، وارتاح فرج فى مقعده إلى جوار عمه ، وعاد أبو العلا إلى أفكاره .

ستة كيلومترات هى المسافة بين الجزيرة وطناح ، يقطعها قطار الدلتا فى ساعة ، يقف لمن يشير إليه بيده ، يخرج الأهالى من القرى إلى الطريق الرئيس ، ينتظرون تحت مظلات مفككة لا تقى من حر ولا من مطر ، يرفعون الماشية فى العربة الأخيرة ،

ويدفعون أحمالهم نحو بوابات العربات المتقاطرة يفترشـون الأرض أو يوزعون علىالكراسى إذا عثروا على مقعد فارغ .

المهدية ، الترعة الجديدة، الحلوات ، ثم أخيرا طناح، هذه البلدة الكبيرة التى جُلب أهلها من المستعمرات التركيـة المتمـردة علـى الخليفة العثمانى ، تصدر الفرمانات من الباب العالى إلى والى مصر القوى محمد على فيرسل قطعًا من أسطوله إلى الجـزر السـاخطة على حكم الأتراك ، يقهر الانتفاضة ، ويسحب معه عمـلاء الـوالى لحمايتهم من بطش أهل جلدتهم من الوطنيين المطالبين بالاستقلال ، يقتطع لهم الوالى الأراضى الواسعة ، ويشيد لكل أسرة فيلا رائعة .

هؤلاء القادمون من الجنوب الأوروبى ظلوا يقيمون فى عزلتهم بين جدران فيلاتهم الفخيمة .

يتعالوْن على أهل البلد الأصليين ، يعاملونهم بكبريـاء الغـزاة ويدخلونهم بيوتهم كخدم أو مشرفين على أملاكهم التى راحت تتسع يوما بعد يوم .

علّموا الأهالى شرب الخمر بإقامـة البـارات علـى الطريقـة الأوروبية ، ولم يستنكروا قيام بيوت الدعارة بين ظهرانيهم . فقـد انهار كثير من العائلات ، وتدهورت حالها ، فعملت نساؤها فى هذه التجارة الرائجة ليأتوا على أموال أعيان البلاد المجـاورة ، خاصـة فى مواسم جنى القطن .

يسعون إليهم بمحافظ تفيض بالمال ، يجدون أماكن نظيفة للإقامة . وخمارات رائعة ، وصبايا جميلات يحملن وسامة النساء على الشاطئ الآخر من المتوسط ، وصبية كأمثال اللؤلؤ المنثور ، لزوم اللواط لمن يرغبه .

قطعة صغيرة من أوروبا بين قارة من فلاحين غلاظ ، خشنى الطباع . لا يرحمون ، تلوك ألسنتهم سير الخلق بمعايير أخلاقية بالية .

زال مجد هذه البلدة الأوروبية بعد ثورة يوليو بمصادرة الإقطاعيات التى آلت إلى منطق السوق الجائرة ، وبهروب الكثير من قاطنيها إلى بلاد الأجداد لزوال الحماية التى استمدوها من الأسرة العلوية ، ثم إن الكبار منهم كان يكتفى ببيت ريفى بسيط ليقيم فى أحياء القاهرة الراقية ، أو على الساحل السكندرى الذى يذكر ببلدة الأجداد .

ويترك الأرض والمشروعات المقامة عليها لمشرفين من أهل طناح .

الآن تدنو هذه البلدة من السمات المميزة للقرى المصرية كافة، هُجرت القصور ، وتآكلت واجهاتها المغبرة ، وتحول الكثير منها إلى مدارس أو مستشفيات أو إدارات للنظام العسكرى الحاكم .

وتقاربت المسافات بين الطبقات إلى حد بعيد حتى برز عبد السلام المنصورى كواحد من أثرياء هذه المرحلة ، حصل على أراضى طناش وطواحينه .

يبيع الآن الفدان إثر الفدان ، ويؤجر الطواحين لمن يقدر على إدارتها . ويستثمر أمواله فى مشروعات أخرى كصناعة عربات حديدية تجرها الحمير ، أو إصلاح ماكينات الرى ، وتأجير الأدوات المستحدثة للفلاحين كجرارات الحراثة وماكينات الدراسة والدراوة .

القطار يدنو ... ويدنو ..

يدخل الشارع الرئيس ، لا يقتحم البلدة أبدًا .

نواتها المكونة لأحيائها الكبيرة ضيقة ومخنوقة ، يكتفى القطار بالوقوف على بداية الطريق ، يهبط الركاب بماشيتهم وأحمالهم وبضائعهم ليلحقوا بالسوق الكبيرة المقامة داخل أسوار حديدية مدببة . يغيّر القطار الماء من غراب على هيئة طلمبة كبيرة ، له خرطوم جلدى سميك . يمتلئ الخزان حتى يدفق الماء على الوجه الإسطوانى للقاطرة .

يصعد ركاب آخرون ..

كى يواصل القطار رحلته إلى السدس ، ومباشر ، والكفور ، إلى أن يصل هُربيط ليعاود الدخول إلى الجزيرة من الجانب الشرقى .

★★★

[رؤيا يونس]

لم أرها فى أول الأمر بل نشق أنفى عطرها فانتبهت من غفوتى. كانت تركع على الأرض وتلقى سحائب شعرها الأسود على حافة الفراش .

قلت لها بوله : شاهى .. أنت هنا ؟ .

سحبتنى من يدى لتخرج من عتمة حجرتى ، كنت أشعر أن شخصا ما يشاركنى الغرفة ، أسمع همس أنفاسه فى ركن بعيد ، ولا أراه . مرقنا من باب الحجرة المتواضعة، كنت أهمس فى أذنها: كيف لبنت القصور ؟!!.

فوضعت إصبعين على فمى .

الطاحونة ساكنة . وطناح نائمة ، والقمر يتستر خلف سحب خريفية هشة . يطل علينا بنصف عين ، قالت : أحبك . قلت وأنا مخنوق بالبكاء : وأنا أعبدك .

– أنت فارسى .

– وأنت أميرتى .

– خذنى بعيدا عن بؤس العائلة التى انمحى زمانها .

وارتميت فى حضنها فلم ألمس شيئًا مجسدًا .

قلت : هل هى بهذه الخفة ؟ .

حاولت مرة أخرى ، فطارت كفراشة تحوم فى فناء الطاحونة ، قلت لها : عودى كإنسية .. لا أريد أن أرى تحولاتك .

دوّمت مثل نسمة خفيفة حول أنفى ، فنشقت عطرًا لا كالعطر .

دارت حولى وأنا أثب للإمساك بها ، حين أفلحت فى الإمساك بها استحالت إلى حمامة بيضاء ، ضربت بجناحيْها الهواء ، ارتفعت ثم هبطت . اقتربت فارتفعت برشاقة نحو ماسورة العادم الباردة .

وقفت هناك لا تريد الهبوط ، وأنا أنادى باسمها .. أنادى باسمها وهى تهز رأسها الصغير ، ولا تجيب ، ثم ضربت الهواء ضربتيْن ، واختفت .

★★★

هبط أبو العلا مع أخيه وابن أخيه مع الهابطين ، استدعى الحمال الواقف على الرصيف ليحمل الجوال الممتلئ بطعامهم وغياراتهم ، وترك الحقيبة الصغيرة فى يد فرج .

نزلوا الدرجتيْن الرخاميتيْن متجهين إلى الضاحية، سأل الحمال:

- على فين العزم إن شاء الله ؟

- طاحونة المنصورى .

- رأيته من دقائق على مقهى الميدان .

- خذنا إليه .

دار حول العمود الحجرى الذى يتوسط الميدان ، يرفع تمثالاً برونزيا لعُرابى على فرسه الجامح ، بينما جسد عُرابى يميل إلى الأمام دافعا فى وجه الريح ورقة منشورة يطالعها أمام شخص وهمى .

دخل المقهى المطل على الساحة ..

لم تزل الكتابة الإفرنجية موزعة على الجدران ، وعلى المرايا التى تؤطر المقهى من الجهات الأربع ، مع صورة باهتة لزجاجات

الكينا الحديدية وأنواع الخمور الأخرى ، قام عن كرسيه الأسود المتين . وحاذر صينية الشاى اللامعة فوق رخام طاولة يتشكل إطارها الحديدى بأوراق نباتية جامدة .

سلم عليهم ، وصفق بكفيْه .

قال له أبو العلا : لا وقت للمشاريب ، ننهى الموضوع أولا .

- لا تتعجلُ كله بإذن الله .

وأخرج من جيبه نقودا معدنية دسها فى يد الحمّال .

- توكل .

شد أبو العلا يده بهلع ، وباليد الأخرى أمسك بذراع الحمّال .

- لا والله ..

- توكل .

عاد الحمّال إلى رصيف القطار .

- كرم زائد عن الحد .

- لا كرم ولا يحزنون .. خيركم سابق .

★★★

[شاهيناز فى الطريق]

حين عاد به عليوة من المقهى وجد أخاه « أبو المعاطى » جالسا على المصطبة تحت التوتة ، هناك فى الفناء الخلفى للطاحونة ، سأله متلهفا : خير ؟.

قال له وهو شارد فى الأيام الأخيرة للأب : أجّرت طاحونة المنصورى .

– طواحين مرة أخرى .. ألا يكفى فشلك فى الصوالح ؟.

– مهنتنا ولا نعرف غيرها .

– يكفى طاحونة الجزيرة مع الأرض الزراعية .

– الأرض لا تدر شيئا هذه الأيام يا «أبو العلا»، ولولا الطواحين لما وسَعنا فى بيوتنا ، ولا أراضينا ، ثم إننى لم أفشل ، أهل البلد ناصبونا العداء من البداية .

– لم تعد إلا بشهدة ، جئت بها هاربًا فى ظلام الليل .

– لا داعى لتكرار هذا الكلام .

– وتريد الإشراف على الطاحونة الجديدة ؟

– أرنا شطارتك .. اذهب أنت ويونس ومعكم ولدى فرج ، وربنا يوفقكم .

– ستبقى أنت المتحكم الوحيد فى طاحونة الجزيرة ؟.

على العموم ، أنا لم أفلح فى جمع المال منهـا لأبتـاع سـيارة خردة ولا شراء بيوت .

– البركة فيك تشترى منى الدار ، والسيارة كما ترى .

وأشار إلى هيكلها الصدئ المغـروس فـى الأرض الخلفيـة للطاحونة يتراكم حولها الطين ونفايات البيوت .

– توكل على الله من الصبح .. وسأنتظر ما تفعل فى طناح .

استعاد هذا المشهد وهو يهتز يمينًـا ويسـارًا علـى كرسـى الحنطور الذى يسير على مهل بين طريق زراعى ممهد تنتصب على جانبيه أشجار العبل السامقة .

هذا الطريق يلتف حول البلدة من الجانـب الغربـى ، يختصـر المسافة بين طناح والحلوات ، يرتفع بـين ترعـة صـافية المـاء ومصرف يغطى سطحه الريم الأخضر .

من جهة الترعة ، يمرون على قناطر صغيرة تـربط الطريـق العريض بممشى مفروش بالحصى الدقيق إلى فيلات بعيدة تتكـاثف على أسوارها العالية أشجار دسمة الخضرة .

أكثر من فيلا أقيمت على طراز معمارى متشـابه ينتمـى إلـى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

عند القنطرة الأخيرة ، وقبل الطاحونة بقليل خرجت عن يمينهم (كارتة) جفل حصانها للمفاجأة ، فكاد ينـدفع إلـى الـوراء . شـد

الحوذى اللجام بقوة حتى فزع الحصان ، ووثب بساقيْه الأمــاميتيْن إلى الأعلى .

وصرخت الهانم العجوز التى تغطى رأسها بشال خفيف تتنــاثر عليه زهور سميكة من الدانتيل الداكنة .

- فتّح يا أعمى .

والفتاة الجالسة إلى جوارها صرخت برعب .

- يا ماما ..

مال جسدها اللدن العارى الذراعين إلى الوراء ، ثم انحنت دون إرادة منها إلى الأمام ، فترجرج ثدياها الكبيران المخنوقان بتقــويرة واسعة محكمة ، قمران مضيئان لمع ضوؤهما فجأة فى دكنة الثوب الأسود الواسع .

- لا تؤاخذينا يا هانم .

قال الحوذى صاحب الحنطور .

- ماذا أفعل بك يا عبد السلام؟ تلوث الأرض وقلنا: أكل عيش .

تريد إزالتنا من الوجود تمامًا .. أهذه أمنيتك ؟

- ما عاش من تمنى لك هذا يا هانم .

تضاعفت الحُمرة على وجنتى الفتاة ، وازدهرت حديقة رائعــة على وجه بكر يقطر حبات الندى ، فسحبت منديلها المطوى بعنايــة

ومررته على الجبهة والوجنتين ، ثم هبطت به إلى أسفل لتمسح النحر ومساحة الصدر المتاحة .

لم يرفع رجال الجزيرة عيونهم عنها ، حدقوا جميعًا فى الوجه والقوام الممتلئ الذى يفيض على جانبى الكرسى اللين ، أخرج أبو العلا منديله الكبير المكدس فى جيب الصديرى، ومسح تحت العمة . وحول العنق ، وهمس يونس فى سره حتى لا يسمعه أخوه الأكبر : يادين النبى ، وفرج المسكين ضغط بين فخذيه حتى لا ينفلت شىء من سرواله .

أدارت الفتاة وجهها بعيدا عن العيون الجارحة ، ورفعت خصلة الشعر التى تهاوت من أسفل الطرحة السوداء الشفيفة .

- عمى فى عينك .

- سامحينا يا هانم .

- غور .

هكذا وجهت عنفها إلى الحوذى ، ثم التفتت إلى المنصورى .

- أما أنت يا عبد السلام فلك حساب عسير معى .

- أمرك يا ست .

وأشارت بطرف ذقنها نحوه مستفسرة عن صحبته ، فقال من تلقاء نفسه :

- المستأجرون الجدد للطاحونة .

- وأين عثرت عليهم ؟

- إنهم من الجزيرة .

فلان وجهها قليلا ، وركزت نظراتها نحو « أبو العلا » تحديدا ؛ فقد تبين لها أنه المستأجر الحقيقى .

- أهلاً بكم .

- هؤلاء أصحاب طاحونة وليسوا دخلاء على الحرفة يا هانم .

- سنرى .

ثم نقلت نظرها نحو يونس الذى لم يرفع عينه عن حفيدتها .

- كم أفسد صنايعية هذا الرجل الطحين والأرز .

فرد يونس كفه على صدره بامتنان وعيناه لا تفارقان البنت .

- أنت تأمرين يا حاجة إن شاء الكريم أعلى رز وأعلى طحين .

- سنرى .

ودفعت الجالس على الكرسى الأمامى ، أرخى اللجام فتحركت (الكارتة) إلى الأمام فى اتجاه معاكس .

قبل أن يسرع قالت موجهة الحديث للمنصورى ، وهى تعنى المستأجرين الجدد :

- سنوية الباشا الأسبوع المقبل ، سأرسل لك الحبَّ بعد يوميْن.

فأجابها أبو العلا والبهجة تغرد فى قلبه :

- سأحمله على رأسى لحد باب الدار .

فوكزه المنصورى فى جنبه .

- دار !! أنت (فلح) صحيح ، هذه فيلا .

- كلها دور .

الدار هناك فى بلدكم .

- من هذه الهانم يا عبد السلام ؟ ؟

- هى - عقبال عندك - زوجة الباشا مصمم بساتين الأسرة المالكة .

- يعنى جناينى على كبير .

- مثلا .. هذا الجناينى كانت له (شنة ورنة) قبل الثورة .

أملاك ، وأطيان ، وخدم وحشم . هذه الفيلا واحدة من أملاكه ، تقدر تقول القصر الريفى ، أما حياته هو وأسرته فكانت فى مصر مع الأسرة المالكة ، لما خربت مالطة ، لم يبق له غير هذه الفيلا ، وبعض الأفدنة ، وعايشين على عزوة زمان يعنى ، ريش على مفيش .

- آه يا زمن ، طاحونة دوارة ، تهرس ناس ، وتنعّم ناس .

- عش أيامك ، نحن رجال هذا الزمان .

- وعلى الرغم من ذلك أراك تنحنى أمامها وتقدم كل التبجيلات.

- أنت لم تعش أيامها الأولى ، أهلنا يحكون لنا كيف أن الواحد منهم لم يكن يجرؤ على المرور من أمام الفيلا ، ثم إن حفيدتها هذه ألا تستحق الانبطاح على الأرض ؟.

فقال فرج دون مراعاة للأعمام ، ولا لفارق السن .

- لهطة قشدة .

- حتى العيل نطق .

- أنا عندى ١٦ سنة ، والله أقول لأبى .

- وأنا بدورى سأقول له إن ولدك صار ديكًا ، فاعثر له على دجاجة تليق به .

ونطق يونس أخيرًا .

- أول مرة فى حياتى أرى نسوانًا بحق وحقيق .

وتردد فى سمعهم صوت ماسورة العادم تطلق دخانها فى فضاء الحقول . استجابوا للصمت لبعض الوقت إلى أن وقف الحنطور أمام حجرة الميزان بالضبط .

- انزل يا عم اسلم لكم الأمانة؛ كى ألحق بمشوارى فى الجزيرة.

- الطواحين كلها شبه بعض .

- ربما تجد شيئا هنا أو شيئًا هناك .. المهم تقر بالاستلام ..

طبعا هذه هى حجرة الميزان .

- نسخة من حجرتنا .

ساروا خلفه يضربون سيقانهم فى الأرض لتفك تكبيلاتها من الجلسات الطويلة .

وقف عبد السلام بالخارج وأشار إلى حجرة أخرى .

- وهذا مضرب الرز. ادخل يا "أبو العلا" ألق نظرة على عدته.

- يا عم على الله ، هو أنت غريب .

ثم دخل حجرة واسعة تمتلئ بالزبائن من نسوة طناح ، ويجلس على دكتها طحان كهل . ألقوا عليه السلام .

- حجرة الطاحونة بها غربال كبير و (قادوس) لم يدخل الخدمة إلا من شهرين .

وصار موكبهم إلى الجهة الخلفية حيث حجرة العدة ، مروا على الأسلاك الملقاة على الأرض ، تمتد حتى الدينامو بانتظار البطاريات التى ستحمل إليه بعد قليل ليتم شحنها ؛ كى يعاود الخدم رفعها إلى البيوت والفيلات مع أذان المغرب .

- كله تمام .

- هو أنت غريب يا عبد السلام حين يحدث شىء سنأتى بك ونرميك بين السير والحدافة ، ولا من شاف ولا من درى .

- ماشى .. أنا تحت أمركم ، أفرغ يا فرج أشياءكم من الحنطور .

جرها فرج إلى الأرض ، وقبل صعود عبد السلام إلى كرسيه ضرب رأسه بكفه .

- نسيت أقول لكم : السكن هناك فى الحرم الغربى للطاحونة . وهذا مفتاحه ، مفروش وجاهز من مجاميعه .

- كتر آلف خيرك ، سلّم على البلد .

- لحقتوا تشعروا بالغربة .

- كله على الله .

- سلام عليكم .



[الأيام الأولى لفرج]

لفرج عالمه السرى الذى لا يطّلع عليه أحد .. رجال العائلة الكبار يعاملونه كولد عبيط ، قليل الخبرة بكل شئون الدنيا . يتركهم على عماهم ليمارس هو نشاطه الخفى دون أن يلموا به ، فيعرض نفسه للزجر ، أو الحصار الخانق ، وينطلق هو بين النساء ككبش القطيع . يقرص الحلمات ، أو يدس إصبعه ما بين الفخذيْن أو يدخل مقدمة جسده إلى مواضع العفة فيهن . ومن الحركة البسيطة التى توحى دون الإبانة . تبدو له المحتشمة من الفاجرة ، تنظر إليه

الأولى بحزم ، وتكبح جماحه بشخطة قاطعة تطفئ شعلة جسده المشدود على مدار اليوم ، وربما نال الصفعة ، يلحسها وهو كظيم. وينسحب بهدوء حتى لا يلحظه أحد من حوله ، ولا يعاود المحاولة أبدا .

أما الصنف الثانى فإنها تبتسم فى وجهه مشجعة ، وربما مالت على قفتها بغير حاجة للميل لتتيح له مضاعفة الفعل ، وإذا قرصها من صدرها تقول بدلال وبغير ممانعة : عيب يا ولد أنا قد أمك . فيلاحقها ، ويحوم حولها ، يصعد معها لمساعدتها فى تفريغ الحبّ، ويدنو أقرب غارسا كامل جسده فى وفرته المتطلبة بحيث لا يلحظ الأسطى نور ، أو ربما يلحظ ، ويترك له الحرية بزعم «دع الخلق للخالق .. » .

فى سنه كان يحظى بأكثر من هذا «حين يضمه الفراش مع زوجة شرعية سيعلم أن الله حق » .

جرّب فرج صبية صغارًا من أولاد الحى ، يسحبهم إلى السندرة ليلا مقدما لهم (الحاجة الحلوة) وينهى الأمر قبل عودة نور من صلاة العشاء كى يبدأ فى نقش الحجر . حين يحظى بصيد ما يجلس أمام نور رافعا الشاكوش بوهن ؛ ينظر إليه نور من (تحت لتحت) ، ويسأله مستنكرا : مالك الليلة يدك سائبة ؟ اقبض على الشاكوش بقوة .

فيفيق من وهنه .

– على آخر العزم يا أسطى .

– أنت الليلة خرع .

– جائع .

– لا تملأ بطنك قبل أن ننهى النقش .

ووفق – أخيرا – فى العثور على المرأة التى تستجيب له بسهولة . كانت قد جاءت بـ(شوية) قمح صغيرة ، رفعها إلى (القادوس) صائحا لنور : مصرى .

هذه إشارة على أن القادم إليه من (القادوس) حبات قمح ؛ فيخفض الحجر إلى أقصى درجة . أما إذا كانت الصيحة (أبيض) فيعلم نور أن القادم إليه ذرة، فيلف الدائرة المعدنية الساقطة على جسد (القادوس) ليرتفع الحجر إلى المدى المطلوب ، ثم يعاود الخفض إذا سمع صيحة (أصفر) فيعلم أن (القادوس) استقبل حبات قليلة من الحلبة التى يفضل بعض الزبائن خلطها مع الدقيق لينتج خبزا داكنا له مذاق مر . ولكنه مفيد للمعدة جدًا .

قالت له نجاة : البركة فيك ، ووهبتك عندى .

انتظر أن تفك منديلها لتمد له يدها بالوهبة ، ولكنها لم تفعل اكتفت بترك كفها يهبط إلى ما بين فخذيه فاهتاج للفعلة المفاجئة .

- شكلك يقول إن لك فى الصنف .

- أى صنف ؟

- الحشيش .

- وأين أجده ؟

- الشيخ مصطفى سيكون فى انتظارك الليلة فى حجرتنا .

ووصفت له مكانها ..

بعد الانتهاء من نقش الحجر مع الأسطى نور ، شطف جسده وارتدى جلبابه الأبيض النظيف ، وانطلق إلى الشارع التجارى ، قطعه بالعرض ، ثم دخل شارعًا فرعيًا مظلمًا حيث مر بباب البوسطة ، وسار مع امتداد الشريط الحديدى لسكة القطار . مر إلى جوار عربات قطار الدلتا المكدسة على أول الطريق العمومى .. ترك المحطة النائمة خلف ظهره ، وخلّف شوارع الجزيرة وراءه ، قرب الطريق الجانبى للترعة التى تعبر خط القطار ، مر على قناطر تدفق الماء برعب ، ثم رأى بصيص النور يمرق من فتحات ضيقة فى الباب المغلق ، نادى على صاحب الحجرة .

- يا شيخ مصطفى .

وفوجئ بنجاة أمامه فى قميص ستان فاقع الحُمرة . كان يحجز النور القادم من خلفها . فتشكل عبر الظل والنور والدخان الكثيف بدنا مغويا . لا يقاوم .

- تفضل يا سى فرج .

هبط درجتيْن إلى أسفل ، ودخل وراءها ، وجد الشيخ أمام المنقد يميل رأسه بالطربوش المغربى والعمة ليتابع النار فى مصفاة صغيرة ينقل جذواتها إلى حجر الجوزة التى سدد غابتها كمدفع منصوب فى أفواه حلقة الشباب المبعثر على (شلت) قطنية فوق الحصير .

- يا مساء الورد .

هتف الشيخ مصطفى مقيم الشعائر بالجامع الكبير .

وردد الشباب التحية وراءه ، ثم راحوا يتابعون نجاة وهى تصعد إلى السرير ، تركن ظهرها على وسائده ، وتلملم لمعة الستان حول الساقيْن البيضاويْن ، رفع زوجها رأسه نحوها ليلومها: تطلعى قبل ما تعملى الشاى لابن الأكابر .

- والنبى تعبانة يا مصطفى .

نشط شاب أخذه السُطل فأرخى جفونه ، وجعل حركته بطيئة هينة .

- دعنا نقمْ بالواجب .

- أين البرّاد ؟

- ومجمع الشاى ، وبرطمان السكّر ؟

رفع فرج يده إلى رأسه .

- متشكر يا إخوانا .

وألقى قطعة الحشيش على الورقة المفرودة أمام الشيخ . داومت نجاة على زيارته ، فكان يترك لها باب الطاحونة مواربا ، ويقبع هو بالداخل تحت السندرة تتلمس طريقها فى الظلام تدخل من الباب ثم تدفع الحجر الصوان وراء ضلفته ، ينحنى جسدها القصير لتمرق من باب السندرة الضيق ، ينتظرها على فرشة من أجولة الحب . بعد أن ينتهى يمنحها ما جمع من وهبة الزبائن .

كما اعتاد زوجها زيارته ..

قد يمر عليه بعد أن يرفع الأذان ، ويؤم المصلين فى صلاة العصر . يقف بحذر على جانب النافذة البحرية ، يلمحه فرج فيذهب إليه قبل أن ينتبه نور ، يصدر له أذنه من بين القضبان ليسمعه من بين أصوات الحجر ، ودفعات ماسورة العادم .

- نجاة تسلم عليك .

فيمد إليه يده بحصيلة اليوم .

- جهّز القعدة فسأمرّ عليك الليلة .

- إن شاء الكريم .

استعاد فرج كل هذا وهو ممدد على فرشته فى حجرته .. ها هو يستقبل حياة جديدة فى بلدة لا يعرفها .

أقام الأعمام فى الحجرة الكبيرة ، وتركاه وحيدًا يفــرد جســده على فرشة امتص نسيجها عرق السابقين عليه .

– هذا أفضل .

واستعاد مشاهد النسوة من أهل طناح ، إنهن يتصفن بالجمــال والنظافة (خليط من الترك وأبناء العرب فخلق ساحرات يفتن العابد، ويسرقن الإمام من محرابه) على حد قول عمه يونس .

– والله ونطقت يا يونس .

قال له أبو العلا ساخرًا .

– لن أعود إلى بلدنا إلا ومعى امرأة من بنات هذه البلدة .

– وهل تقدر عليهن ؟

– أقدر على أسلافهن .

– والله عال ..

– تزوج أبو المعاطى امرأة من الصوالح على زوجته القديمة ، وأنت ارتبطت بزوجتين ، هل أبقى وحيدًا دون امرأة واحدة ؟

– وحياتك سأعود بالثالثة من هنا .

– وهل وجدتها يا « أبو العلا » ؟

– البنت الصغيرة حفيدة الهانم .

فضرب قلب أخيه بسيخ من النار .

- وهل ضاقت عليك الدنيا فلم تعجبك غير بنت من دور بناتك ؟

- هذه موهوبة لمن يقدِّر النساء .

ظل فرج يسمع هذا الحوار الليلى من خلال جدار الحجـرتيْن ؛ حتى نام محطم القلب كئيبًا .

- هؤلاء الشباب لم يجدوا غيرها ، أنا قتيل هذه الصبية .

مُذ اللقاء الأول حين رآها مذعـورة من جموح الحصان وهـى لا تفارق ناظريْه .

صباح الأمس التقى بها مرة أخرى ، جاءت مع الخدم كى تعـد طحين سنوية الجد ، وسمع صوتها الساحر وهى تنقل دعوة جدتها للعم الأكبر لحضور السنوية .

- إن شاء الله سنأتى جميعًا .

ورقص قلبه الحبيس فى صدره حين أمره العم بمساعدة الآنسة وخدمها . وأن يوصى الطحّان على قضاء طلبهم دون سؤالهم عـن الوهبة .

ظل يحوم حولها بسعادة ، أراد اختبارها كما كان يحـدث مـع نساء الجزيرة إلا أنه لم يجرؤ على الدنو . ظل على مسافة ؛ خشية أن يلوث ثوبها الفخيم بزيت عفريتته . وسألته فجأة :

- ممكن تفرجنى على الطاحونة ؟ .

- أنا أحفظها قطعة قطعة .. تعاليَ .

أراد أن يبدأ بحجرة العدة ليبث في قلبهـا الرعب مـن الآلات الضخمة التى تستمد قوتها من وابور له كبّاسات قوية تضرب إبطيه على الجانبيْن ثم ينقل حركتها إلى عمـود صـلب يـدور بحذافـة تضاعف السرعة وإسطوانة لامعة يركب عليها السير الكبير النـاقـل للحركة إلى حجرى الطاحونة .

جاءه العم أبو العلا .

- اذهب إلى عملك أنا سأفرجها على كل شىء .

يونس الذى ينحنى على فوهة مضرب الأرز قام إليها بـإجلال ، وأراد أن يشرح لها كيفية عمل الفرّاكة ، ولكن ، أبو العلا ، قال له بطريقة تقلل من شأنه أمامها :

- انتبه لزبائنك ، الآنسة معى ، والميزان خالٍ .

لكن البنت أنهت نزوتها على عجل ، وقالت : لا حاجة للفرجة ، سأقف مع الشغّالين أتابع الطحين .

- أمرك يا ست الكل .

ثم صعدت الدرجات الخشـبية .. داسـت بحـذر علـى سـقف السندرة. واقتربت من فرج الذى يتابع الحبَّ بالقادوس .

ابتهج فرج بحضورها ، وقال لها وهو يصطنع طريقة الأسـطى الكبير : هنا نلقى القمح أو الذرة أو الحلبة ، وأنا أنبه الطحّان لنوع

الحبّ ليتحكم فى درجة تماس الحجريْن الثابت منهما والمتحـرك ، ولنا (سيم) نتكلم به ، ستعرفينه حين نبدّل القمح بالذرة .

ولم تحفل بما يردده ، ولكنهـا سـألته : هـل تحضـر معهـم السنوية؟.

- وهل أنا أقل منهم شأنًا ، إن أبى أكبر منهم سنًا ، وهو الذى أجَر هذه الطاحونة من المنصورى ، وهو الذى يشرف على طاحونة الجزيرة .

- اسمك فرج ؟

- أى نعم .

- وأنا اسمى شاهيناز .

- عاشت الأسامى .

- سأزعل إذا لم تحضر .

- لا أقدر على زعلك أبدًا .

أراد أن يرفع يده نحوها ليتحسس خديْها الورديْن ، ولكنه لـم يستطع .

ابتسمت له ، وسألته : هل ذهبت إلى المدرسة ؟ .

- ذهبت وأخرجنى أبى ؛ لأنه محتاج إلىَّ فى عملـه للإشـراف معه على الطواحين .

– سأكون بالداخل أشرف على طعام الأقارب القادمين من القاهرة .

– سأعثر عليك .. لا تخافى .

– سنصعد معا إلى سطح الفيلا .

– أصعد معك إلى المريخ .. لو أردت .

★★★

[فوق سطح الفيلا]

للقصر وجه كئيب .

وعلى الرغم من الإضاءة المتناثرة حول أسواره فالعتمة غلاّبة تلف غرف النوافذ الطويلة المغلقة ذاتها ، والظلام يساقط مع أوراق الشجر الذى يمد أغصانه إلى الدور الثانى .

كثير من الحجارة فارق مكانها من السور العالى ، وكثير من الجص تهرأ ، ووقعت طبقاته فبدت الواجهة كعجوز مصابة بالبهاق.

استقبل فرج الطريق الضيق الممهد بالحصى الصغير ، عبر القنطرة الصغيرة رافعا جلبابه النظيف إلى أعلى ، ارتداه بعد أن أنهى عمله فى نقش الحجريْن ، تحمم بالليفة والصابونة المعطرة فى بئر الماء الساخن ، وأخرج طربوشه الأحمر ، سوّاه من جوانبه ليعدل استقامته ، ويسوى خيوط الزر الأسود ، هذا آخر عهد بالتعليم ، قضى معه عمرًا بين فصول الدرس ؛ فقد لحق بالإلزامى

قبل إلغائه . وقضى عامين فى المدرسة الأولية ، ثم خضع لأمر أبيه بترك الدراسة لمتابعة العمل معه فى الطاحونة .

أريدك أن تكون رجلا تمثل يدىّ وعينى فى غيابى . .

وأغراه بالزواج المبكر ، ثم قال له حين رأى دموعه تسيل على خديه : . كم ستحصل من راتب بعد تخرجك ؟ سأعطيك الضعفين ، ولك نصيب من وهبة الطحين إذا خدمت على القادوس ، ووهبة الرز إذا خدمت على الفراكة . .

مسح دموعه بطرف أكمامه . قبل كل هذا أريدك أن تلم بالماكينة لتكون أسطى كبيرًا . . كيف تعمل ؟ كيف تبدل لها الزيت؟ كيف تمسك بالشُعلة عند الدوران؟ وكيف تصلح طلمبة الماء وطلمبة الزيت؟ وسأعرفك - فى رحلتى القادمة إلى القاهرة - بتجار قطع الغيار فى شارع إبراهيم باشا ، وصناع أحجار الطاحونة فى السبتية . .

وفرضه على شركائه من الإخوة ، وتقبلوا وجوده بنفس رضية، فالولد طيب . . لا يهش ولا ينش . ، ومادام هو بعيدًا عن الميزان ؛ فلا خوف منه ، له أجره الشهرى ونصيبه من الوهبة يحصل عليه من نور الطحّان .

عشق فرج عالم الطاحونة ، كان موافقًا لفحولته التى كان ينصت لدبيبها فى جسده العفى . وفرة من النساء تتقلب عليه ،

تعَلم من نور تفاصيل الحرفة ، كما تعلم منه القدرة علـى مداعبـة النسـوة ، يحوم حول أجسادهن ، يلامسهن ، دون أن يستشـعرن بالاقتحام الفاضح .

والآن يخضع لرغبة الأب فى ترك طاحونـة الجزيـرة ليلحـق بأعمامه فى طاحونة طناح ، قال له قبل المغادرة : « لا تكف عـن مراقبتهما ، وتبلغنى بأى أمر تستشعر منه التحالف ضدنا ... » .

- لا أريد مفارقة الجزيرة .

- يا خايب هناك بنات جميلات تعلق بإحداهن وأنا أزوجك إياها، إنهن بيض بياض الجُمار ، مربربـات كـالهوانم يعـرفن أصـول المعاشرة ، وتحسين النسل .

عثر عليها فرج بيسر ، وفى وقت قصير .

أقبلت عليه البنت بسهولة ، ولكن يداخله شـك فـى الموافقـة عليه. لجدتها أنف شامخ ، يضرب بعظمته وجه السماء .

للحب شأن آخر ..

لا يعترف بالطبقة ، ولا بالعرق ، ثم إن زمان آبائها قد ولـى ؛ فقد صاروا مسخرة للـ « يسوى واللى مايسواش ..» لم يـدع لهـم عبد الناصر من بقايا عصرهم غير هذه (الكارتة) المتخلعة ، وهـذه الفيلا الآيلة للسقوط .

إن أبى يستطيع أن يجمع ما تبقى لهم بجنيهات قليلة .. هـذا زماننا ، كما يردد دائما ، عبد الناصر ينصف العمال والفلاحين . من كان يتخيل ما حدث ؟ أن يطرد الملك آخر سلالة أسرة محمد على . ويغادر الجيش الإنجليزى مدن القناة ، وتصادر أراضى الباشوات . بل من كان يتصور أن يهرع الأجانب لمفارقة البلاد تاركين ثرواتهم لعمالهم من أمثال المنصورى ؟ .

فلأخلط ثروتنا الجديدة بعراقة نسبها ، وننجب أبناء يجمعون العنصرين معا ، ويشكلون كائنات الأرض الجديدة التى يبشر بها زعيم الضباط .

– بس .. بس .

سمع الصوت يأتيه من الجانب المظلم من السور ، ظن أن أحد الخدم يستدعى قطا فر من حجرات الفيلا .

– بس .. بس .

كان الصوت يتداخل مع ترتيل المقرئ فى المضيفة الكبيرة ؛ حيث اجتمع الأهل والأقارب الذين قدموا من قرى المديرية ومدنها ، كما قدموا من الأحياء الراقية بالقاهرة ، يجلسون فى حلقة واسعة على كراس مذهبة تتوزع على سجادة سميكة مفروودة بحجم المضيفة . وكان يعلم أن أعمامه سبقوه لتأدية الواجب والتقرب من السيدة الكبيرة على أمل أن تميل إلى أحدهما ؛ فتوافق على تزويجه بالفتاة الجميلة .

نجوم السماء أقرب إليهما ، أولاً : العم أبو العلا لن يُسمح له لارتباطه بزوجتيْن ، وسترفض الهانم أن تلحق شاهيناز بنسانه لتكون الثالثة فى الترتيب حتى لو طلقهما وهو يكبر البنت بمسافة كبيرة .

والعم يونس قليل الحيلة وعاجز عن مواجهة أخيه ، سينهى معه الموضوع قبل أن يبدأ ، احترام السن واجب . وهو يراعى ترتيبه بين الإخوة . ودائمًا ما يلجأ إلى « أبو المعاطى » ليحقق رغائبه. أو لينصره على جبروت « أبو العلا » ، وأنا سأسبقهما يفتح الموضوع مع أبى . .

سأعود إلى الجزيرة يومًا ، وأقف أمامه لأقول له : ها قد تحققت نبوءتك يا أبى ، اخترت البنت الجميلة التى تنتمى إلى طبقة عريقة . تعال معى إلى طناح لطلبها من جدتها .

سيهدهدنى على كتفى قائلاً : عفارم عليك يا ولد .. لقد أحسنت الاختيار .. .

. بس .. بس . ما هذا النداء الخافت الذى يتسرب إليه مع الآيات . تلفت عن يمينه وعن يساره ، فرآها هناك إلى جانب البوابة الحديدية المرتفعة تتخفى فى ظلام الليل وعتمة الشجر .

مال نحوها قبل أن يقطع مساحة الضوء الملقاة من الصالون الرحيب المزدحم برجال يضعون على رؤوسهم طرابيش حمراء

عتيقة ، ويفتلون شوارب فارعة هى آخر ما تبقى لهم من مظـــاهر الأمس .

ولماذا حافظ هو على طربوشه المدرسى على الرغم من نداءات الثورة بإلغائه ، لم يزل يمثل مستوى اجتماعيًا فى عرف النـــاس ، وإن كانت الأحوال قد تبدلت . أمامنا فترة طويلة حتى يعتاد النـــاس الرأس المكشوف .. .

رآها تستند على الأغصان المعدنية التى تتشكل علـــى الجـــزء المغلق من البوابة تعال .. . .

سار وراءها وهو غير مصدق لما يحدث ..

دارت حول أسوار الفيلا حتى وصلت إلـــى الجهـــة الخلفيـــة . صعدت به درجات السلم الرخامى الضيق ، ودخل معها دهليزا يمـــر بسلم آخر يلتف حول نفسه كما يلتف سلم المئذنة .

– هذا هو مدخل الخدم .

فلم يرقه ما قالت : هل هو غير جدير بسلم البهوات ؟؟ . .

– يصعد بنا إلى السطح . لا من شاف ولا من درى .. . .

آه .. هكذا !! .

اطمأن قلبه الذى كان ينتفض من هول المفاجأة .

ومن ظلام إلى ظلام وجد نفسه أخيرًا على سطح واســـع مـــبلط إلى جوار غرفة صغيرة تعثر فى سجادة (متر فى متـــر) ووســـائد لينة تميل نحو الجدار المنخفض للسطح .

- اجلس .

فجلس لا يملك من أمره شيئا ..

ماذا تريد هذه الفتاة ؟ « « إنها جريئة أكثر مما تصـور » .. ذهل بحيائها ونظرتها الخائفة لما جفل حصانها العجوز . انجذب لحمرة خدودها ورقة صرختها العفوية ، وانتشى برقتها حين رآها بين نسوة الطاحونة ودنوها منه على مشهد من العمين المتصارعين من أجلها .

آه لو علما بموقعى الآن لاجتمعا على ذبحى خفية فى عزلة غرفتى .. « .

كم من ليلة قضيتها مراقبًا لصراعهما المكظوم .. » .

تمدد إلى جوارها ساندًا ظهره على الوسادة .

- خذ راحتك .

- أنا براحتى تمامًا .

- أراك مضطربا وخائفًا .

- غير صحيح .

- أنت قليل التجارب مع الصبايا .

- لم أر مثلك فى حياتى .

- كيف ترانى ؟

- ملاك غادر السماء ليقيم بيننا .

- هذا كلام معاد .. ألم تقرأ روايات فى حياتك ؟

- روايات !!

- قصصًا يعنى .

- لا .. أعيشها فقط .

- كيف تعيشها ؟

- كما أعيشها الآن .

- هات يدك .

وفردت كفها الممتلئة فى كفه ، وجعلت الإبهام على الإبهام .

- من هنا تتحدث القلوب . مالك مخضوض ؟ يدك عرقانة .

أين نجاة زوجة مقيم الشعائر من بنت الأصول ؟ " .

- أنا مبهور .. حدث ما بيننا بأسرع مما توقعت .

- سأريك ما لم تره فى حياتك أبدًا .

- كيف ؟

- لن تعرف هذا حتى يضمنا فراش واحد .

وكاد قلبه أن يخذله ، فيتوقف عن الخفقان !! هذا أكثر مما حلمت به فى حياتى .. " .

أكملت ..

– اطلبنى من جدتى ، وأنا سأوافق .

– أتوافق على شاب مثلى من طبقة أدنى ؟ .

– إذا ركبت دماغها نهرب معًا إلى بلدتك .

– لابد أن أفاتح أبى فى الموضوع .

– قبلنى .

– ماذا ؟

– قبلنى فى شفتى .

عجـز بدنه عن القيـام إليها ؛ فقـد تراخت أوصاله جميعًـا . أراد الاقتراب عندما وجدها مهيأة للقبلة فانفجر دم شرايينه ، وخيل إليه أن قلبه فقد نبضه ، وسكن تمامًا ، وأنصت الكـون كلـه فـى لحظة انتظاره وفقدان القدرة على الاقتراب ، وخفتت الأصوات عـدا صوت المقرئ يرتل : «وإذا الموؤدة سئلت بأى ذنب قتلت » وهتاف الحضور من حوله مبدين الاستحسان وطـالبين الاسـتعادة . فظـل المقرئ يروح ويغدو بين الآية . ثم يسمع صـراخ الرجـال كـأنهم نادمون على فتاة وأدها أبوهم الجاهلى للتو ، ودوّمـت فـى أذنيـه همهمات بكائية للسيدات المجتمعات حول الجدة .

ضاعف صوت المقرئ من خوفه ، ورهبته .

كاد أن يختنق بالبكاء ، ولا يدرى مصدر هذه الدمعة التى طفرت من عينيْه ، « هل هى دمعة الفرح باللُقيا أم دمعة الحزن على فتـاة لم أرها ، ولم أدرك زمانها ؟ » .

وكأنها سمعت حديثه الهامس مع نفسه .

– القراءة أحزنتك ؟ لم يجب .

– لا تخش شيئاً ، عاش جدى بما يكفى ، لنأخذ فرصتنا .

– هل تعلمين أن لى عميْن يتصارعان من أجلك ؟

– بجد !!

– أظن أن أحدهما سيقتل الآخر .

– من أجلى ؟

– من أجلك .

– وإذا عرفا بلقائنا ؟

– سيوؤدوننى كالصبية المذكورة فى الآيات .

ضحكت مهللة . وفتحت عينيْها لتحدق فى عينيه على الرغم من النور القمرى الباهت .

– وهل سيتقدم أحدهما لطلب يدى ؟ .

– سيتقدم الاثنان معاً ، وفى وقت واحد .

– لنعجّل بزواجنا .

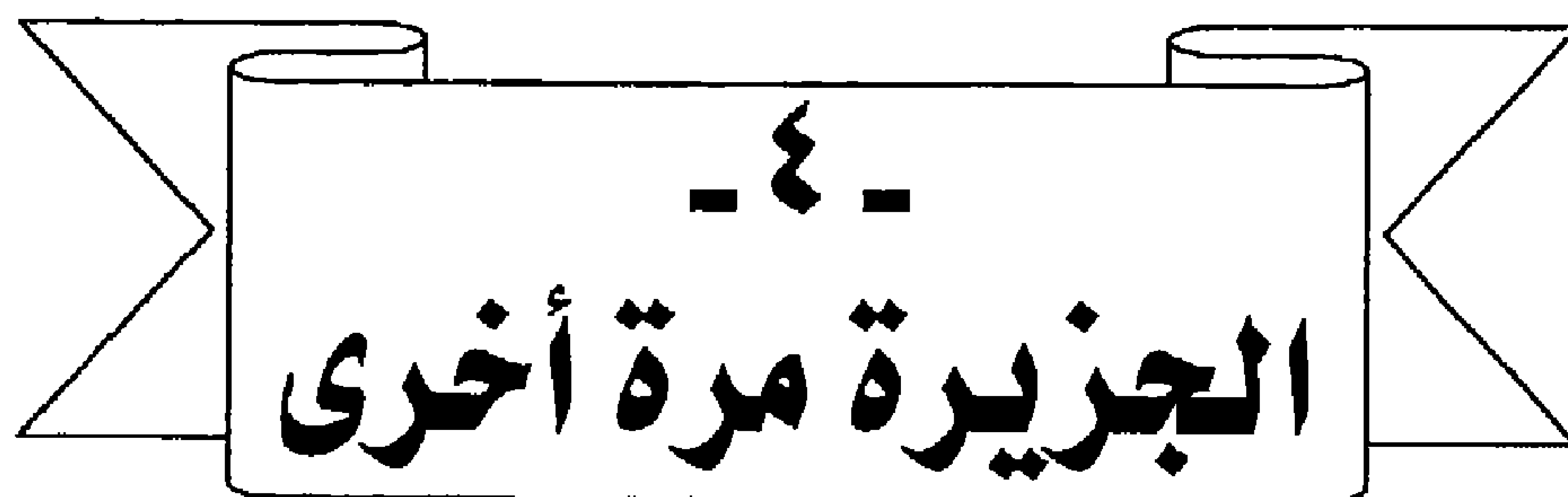
- سأعود إلى الجزيرة مساء الخميس .. أمضى الجمعة وأعود بأبى صباح السبت .

- قبلنى .

وأخذها فى حضنه وهو يرتعد، ثم مال بشفاه جافة ليلعق ريقها، ويتشمم أنفاسها .

كانت نقية كأنفاس الحقول الغافية من حولهما .

★★★


- ٤ -
الجزيرة مرة أخرى

رؤيا فرج

رأيتنى أمام منصة قضاة على هيئة مردة ، الأسوار الحديدية من يمينى والحضور من خلفى أجساد مبتورة .

أنا فرج أبو المعاطى من الفرع الثانى لآل خليفة ، لا تسألونى عما حدث ؛ لأنى عاجز عن التفسير . هل كانت شاهى رؤيا رأيتها قبل لقانى بها ؟.

هل كان ترتيبًا من القدر ؟ أكان لابد أن يحدث ما حدث لكى ألتقى بها ؟ اسألوا الأقدار ، أو اسألوا أبى الذى جاء فى زمن تعلّق فيه بإدارة الطواحين ، أو اسألوا التاريخ الذى رتّب خروج الأجانب ليتركوا ماكيناتهم فيسعى أبى إلى (الصوالح) حيث يُغرم بزوجته الثانية شهدة ، ينفر منه البدو من سكان هذه البلدة فيغلق محله ليعود إلى مدينتنا (الجزيرة) ثم يهجر الخواجات أملاكهم لتقع فى يد العاملين من رجالهم ، فيحظى أبى بطاحونة (طناح) .

اسألوا الجد الذى دعّم أبناء عمومته من آل خليفة ليضاعف دينهم له ، ولا يطالب به حتى يعى الأب ضَعف والده .

اسألوا الزمن الذى ضبط ساعته على هذا اللقاء ، فى ضحى هذا اليوم عند هبوطى من قطار الدلتا ، فيصطدم الحنطور بالكارتة لألتقى بها عند خروجها لزيارة مقبرة أبيها .

انتفض بدنها الغض واحتضن هيكل الجدة الجاف ، المتعجرف .

يرتفع نشيجى - فى صالة المحكمة - ألأننى طالبت المشاهدة قبل الرحيل ؟. كلهم ماتوا ، وماتت معى غرائزى ، ونزعات بدنى ، لكن عشقى لها أبدا لم يمت . فهل أُدان على ذلك ؟.

أعانى سكرات الموت ، وعلى الرغم من ذلك أراها .. أراها .. مقبلة علىّ لتقبّل جبينى بشجاعة ، لا تحفل بتحديق الآخرين ومحاولاتهم قراءة أسرار القلب الغامضة .

فهل أُدان على ذلك ؟.

★★★

• قالوا له : اطلب ما تشتهى يا فرج .

أجابهم بصوت تتخلله غرغرة الاحتضار : أرى شاهى .

أدهشتهم المفاجأة . لم يزل قلبه ينـبض بحبهـا لـم توهنـه السنوات المديدة . . .

كان محاطًا بإخوته وأخواته ، الأشقاء وغير الأشقاء ، وأبنائـه وبناته من ثلاث زوجات (لم ينجب من زوجتيْن) وحفدة فى أعمار متفاوتة ، منهم المتزوج الذى يرفع الرضيع بين يديـه ، وآخـرون يحبون بين الردهة والغرف الواسعة بعيدًا عن مشهد الجسد النحيل الممدد تحت غطاء خفيف .

فرّ من المستشفى صباح اليوم ، فوجئت بـه زوجتـه الأخيـرة داخلاً عليها رافعًا حقيبة الملابس ، هرع إليه أبناؤه منها ليمنعـوا الدم النازف من (الكانيولا) التى لم تفارق معصمه مُذ أُلحق بغرفـة العناية المركزة .

- لماذا لم ترسل فى طلبنا لنأتى بك ؟.

- خنقتنى هذه الحجرة الباردة .

- هل علم الأطباء بخروجك ؟.

- كل ليلة يموت جار لى فى الغرفة، يرفعون الأنابيب عن أنفه، والأسلاك عن صدره بعد سماعهم صوت الإنذار من الجهاز المعلق.

- ولِم لم تطلب الخروج رسميًا ؟

- قلت الدور علىّ هذه الليلة ، فلأمت على فرشتى .. أعطنى سيجارة .

- منع الأطباء التدخين عنك .

- ربما تكون سيجارتى الأخيرة .

حين تحلقوا حول فراشه مساءً ، أعادوا عليه السؤال .

- اطلب ما تشتهى يا فرج .

- أرى شاهى .

صمت قليلاً ثم رشف الهواء من أنفه ناظرًا بحرج نحو زوجته الأخيرة .

- أشعلوا لى سيجارة .

- هذا خطر على صحتك .

- السيجارة الأخيرة .

أشعلوا له واحدة ، وضعها بين إصبعيْن مرتعشيْن ، انسحب منها الدم فازرقّت جلدتها إلى ما فوق الكوعيْن . أعاده أحدهم إلى

الوراء ليمكنَ ظهره من الوسادة ، فرفع ساقًا على ساق ، في الوضع المحبب إليه . الساقان مجرد هيكلين عليهما مسحة من جلد داكن الزرقة ، ينتفضان ، لا عن تباهٍ كما في زمانه الأول ، بل بدافع الدفقات المتباعدة لعضلة القلب المتضخمة .

أخذه سحر الدخان فحلق بروحه هناك : بعيدًا عن الوجود الكئيبة الملتفة حوله . أيام حلوة ، وأيام مرة ، وحلوها أكثر من مرها القلب خالٍ من كل هم، فها هي معشوقته تلحق ببيت العائلة، يسكنها إحدى غرفها الكثيرة ، يؤسسها له الأب بسرير ودولاب وتسريحة ، أما الصالون فقد اتخذ موقعه بحجرة الضيافة الواسعة .

بنت البهوات عليمة بفنون الفراش، تبدع في ملابسها الداخلية، وتبرع في تزيين الوجه .

يعود من سهرته فيجدها في انتظاره ، حجارة الحشيش تصخب في رأسه ، وتجعل لدمه دويًا ممتعًا ، ينال اللقمة » وهاتك يا تقليب حتى ينتصف الليل . .

هل رضي الأعمام بمصايرهم ؟

أبدا .. لولا قوة الأب وخشيتهم منه ، لعصروه عصرًا .

ظلوا على ملاحقتها ؛ يحومون حول غرفتها والأب يقف مترصدًا .. في أول الأمر لم تقصص شيئًا عما تجد .

كانت معجبة بالملاحقة ، وتراقب الصـــراع العنيـــد ، تغـــوى ، ولا تمنح ، تمتلئ ذاتها بالزهو ، وتتقبل العطاء فى السر . ترهـــب الأب وتعمل له ألف حساب ، خاصة حين يُصف أفراد العائلـــة كـــل صباح . يصدر الأوامر ، للرجال أولاً ثـــم ينبـــرى إلـــى النســـاء ، الزوجتيْن ، وزوجات الأخيْن ، والأبناء ، ثم يدنو منها فتهدأ ملامح وجهه ، وتنكسر لمعة عينيْه .

– وانت يا بنت الناس ، راعِ أننـــا أبنـــاء فلاحـــين . صـــحيح لا يُطلب منك ما يُطلب من الأخريات ، ولكنى آمرك بالاحتشام فـــى الملبس ، والتخفف من الوقوف على الأبواب .

– أمرك يا عمى .

وتبسم له بشقاوة يهتز لها قلبه .

يبدو أن الرجل يعانى صراعًا داخليًا يلجمه باقتدار عجيب .

أثناء غياب زوجها فى سهرته الليلية ، سمعت صرير البـــاب – فى سنتها الأولى – دارت بوجهها الناعس لترى الداخل ، فوجدتـــه يسد بفراهة البدن المهيب مساحة الضلفة التى أُحكم غلقها .

دنا منها بحذر ، فتصنعت النوم بعد أن كشفت – عند استدارتها – القميص الشفيف إلى ما فوق الركبة .

سمعت لهاثه وهو يحط بدنه على حافة الفـراش ، وارتعشـت بحرص عندما لمس بأطراف أصابعه الذراع العارية ، انكمشت على نفسها ولم ترغب أبدا فى إطلاق الحريـة لجسـدها لتلقـى الفعـل الحرام. فى خطوات مضطربة ومترددة تسـلقت الأصـابع هضـبة الصدر . أراد الهبوط بها إلى أسفل فخشيت تفاقم الأمر وفشلها فـى السيطرة على نفسها ؛ فقامت مفتعلة الذعر .

- ماذا تفعل يا عمى ؟.

قال الرجل وهو يلقى جذعه على فخذيها :

- هذا جائز فى بلدنا يا بنتى .

- لم أسمع به من قبل .

- لأنك غريبة .

- لو سمحت .. اطلع من هنا وإلا فضحتك .

واستحال العاشق إلى وحش جريح .

- أنت وزوجك تعيشان فى نعمتى ، وأستطيع طردكما من بيتى إذا أردت .

- افعل ما بدا لك ، كنت أظن أنى أعيش فى حمايتك .

- خرَبت عقول رجال العائلة مُذ دخولك بيننا .

- لا ذنب لى .

- لا حياةَ لك معنا بعد اليوم .

- أنا فى ذمة رجل .

- خليه ينفعك .

حافظت على سرها لكن كشفته شهدة حين وجدته خارجًا من حجرة ولدد ، جرّته من كُم قميصه البفتة إلى غرفتها .

- العيب فيكم لا فى البنت .

فى الصباح أصدر أوامره بتطليق شاهيناز ، بكى فرج ، ونام على الأرض يقبل قدمىّ والده .

- أحبها يا أبى .. أحبها .

- حبك بُرص . لحست عقلك يا أهبل .

- ما الذنب الذى ارتكبته ؟ .

- ليست من ثوبنا. لها عاشق من بلدتها لا يكف عن ملاحقتها؛ يكتب لها الرسائل ، وقعت واحدة فى يدى ، ثم إنها لا تكف عن ارتداء اللبس الخليع تقف به على عتبة البيت لتغوى أهل الحى .

- عاقبنى .. اضربنى .. اطردنى من رحمتك ، ولكن ابقها لى .

وخرجت شاهيناز ببقجتها تلف وجهها الأبيض السمين فى طرحة سوداء رقيقة عليها فستان أسود قصير يظهر جوربها الداكن . استدار إليها فرج وأمسك بيدها الحبيبة : لا تتركى البيت يا شاهى .

لم تنظر نحوه ، ظلت محدقة بعين ذبيحة تخور نحو كبير العائلة، عجز عن مواجهة العينيْن السوداويْن اللامعتيْن ، فواجهته عين شهدة الهازئة . كادت أن تطعن صدره بالسكين الموضوع على طاولة الطبيخ ، ولكنها اكتفت ببصقة حارقة موجهة إليه ، وبعيدة عنه حتى لا ينقلب عليها بشراسة ، وينفِّث عن عجزه نحوها .

شدت شاهى يده بقوة ، فانبطح فرج على الأرض .

وغادرت البيت الذى لم تعد إليه أبدًا .

وها هى تعود إليه فى هذه الليلة ، بعد أن علمت برغبة المحتضر فى رؤيتها ، قال الولد لزوجها : أرجوك .. حقق أمنية أبى الأخيرة .

- سألحق بك أنا وزوجتى .

★★★

[خرجت شاهى من جحيم العائلة]

خرجت شاهى من البيت شامخة الأنف لا تريد البوح بسرها . إن نبلها ، وعراقة أصلها يمنعانها من كشف المستور حتى لا تفجر البيت بمن فيه . أرادت الحفاظ على وقار الرجل الكبير ، ولا تعلن عن تهتكه معها ومراودتها على فعل الحرام بمبرر يدعيه . هذا سلو بلدنا . يظنني ساذجة حتى أصدق أن أهل الجزيرة يسمحون لأب الزوج مجامعة زوجة الابن . . أنا صبية .. نعم .. ولكنى أخبر الرجال .

كانت وهى تهبط العتبة المرتفعة تودع هوسًا جنسيًا بجسدها ، من أعمام لم يكفوا عن ملاحقتها . كل واحد يظن أنه الأجدر بها ، يستكثرون على هذا الولد المسكين زوجة جميلة تنتمى إلى أصل عريق . هل فضوا خفايا القلوب الشابة . .

قيل : هل تعود إلى جدتها ؟ ستواجهها بقسوة ،قلت لك إن هؤلاء الفلاحين أجلاف ، وأصلهم الوضيع لا يسمح لهم بتقدير غرامك بواحد منهم . .

وهل لها غيرها ؟ .

ستعود ، ستواجهها بسكون ، لن تدافع عن نفسها ، كل ما يهم الجدة الحفاظ على المظهر الطبقى ، وهى لا تعى أن زمانها قد ولىّ. لا تدرك الحال البائسة التى تحيط بهم ؛ تجرأ عليهم مستأجرو الأرض والعمال والخدم بعد أن وزعت عليهم أملاكهم باسم إصلاح زراعى أفسد العلاقة بين السيد والخادم .

تجاوزت شاهيناز الشعور الذى يميزها عن الآخرين . اندمجت فى الحياة الجديدة ؛ لأنها لم تعش – بما يكفى – زمن السمو على الآخرين ، بالأصل ، أو بالنسب ، أو بالحسب ، أو بالانتماء إلى الأسرة الحاكمة .

ما الذى يفرق بين مصمم حدائق على الورق ومنفذ هذه الحدائق على الأرض حتى لو كانت أرضًا ملكية ؟.

تلقت ما يكفى من جدتها إلى أن رحلت ، وصارت شاهيناز وحيدة تسكن فيلا واسعة ، أراد الورثة توزيعها فيما بينهم بما يكفله الشرع .

وقيل : من حُسن الحظ أن تقدم إليها هذا الأفندى من أبناء طناح . كان راقيًا فى تعامله مع النساء ، لم يعنه أنها مطلقة ، لم يحفل بكونها منسوبة إلى طبقة زال سلطانها ، كل ما ربطه بها

كونها أنثى جميلة ، نبيلة فى سلوكها مع الآخرين ، لا تصدِّر أنفهـا فى سقف السماء . يا أرض اتهدى ما عليك قدى » .

تتوارى فى خجل محبب ، تقبل عليه بشغف ، تدفن فى صـدره حبها المهدر .

أنساها فرج الطحَّان بأسرته الصاعدة مـع الـزمن الجديـد ، وعاشت معه براتبه المعقول ، يحقق لها ما تصبو إليه قبل أن تعلن عنه .

أنجب منها الولديْن والبنتيْن ، وسعيا إلى تعليمهم أحسن تعليم ؛ فالوظيفة صارت قيمـة اجتماعيـة عظيمـة ، والحاصـلون علـى الشهادات يُشار إليهم بكل إجلال وتقدير .

ختمت على قلبها عاطفتها القديمة ، وقبعت فى بيتها مخلصـة لزوجها ، راضية عنه ، وعن أبنائه منها ، وسماحة روحه ، ونقاء قلبه جعلاه سريع الاستجابة لرغبة الزوج الأول ، قال لها : البسـى هدومك .

- لم ؟ .

- سنذهب معا إلى بيت فرج .

- وما الداعى ؟.

- الرجل يُحتضر ، ورغبته الأخيرة فى لقياك قبل رحيله .

- إذا كان هذا على غير إرادة منك ، فلا ضرورة .

- إنه عمل إنسانى .

- ألا تخاف ألسنة الناس ؟

- كيف أخاف من محتضر ؟ ثم كيف أخاف من وثوقى بك ؟

واستجابت لرغبته .

إنها - الآن - تدخل بصحبته نصيب فرج من بيـت العائلـة ، تشق زحام إخوته وأخواته .. أبنائه وبناته .. حفدته الصاخبين مـا بين الردهة والغُرف المفتوحة ، تحدّق فيها العيون بتقدير عظـيم . ويرقبون - بلا حذر - اندفاعها نحوه لتأخذه من يـده ، ويرونـه مستسلمًا لليديْن الرائعتيْن بينما عيناه تطفران بدموع الفرح والأسى معًا .

وقف زوج شاهيناز بين إطار الباب إلى جوار الزوجة الأخيـرة لفرج ، يتفادى كل منهما النظر فى عين الآخر .

★★★

[موت العائلة]

عادت شاهيناز فى هذه الليلة بصحبة زوجها . عادت بعد رحيل الجميع . الأب، والأعمام ، وشهدة ، وبعد أن غادرها ثلاث زوجات، طُلقت الواحدة بعد الأخرى ، وبقيت الأخيرة ترعى شيخوخة فرج وأبناءها منه ، فى بيت أُسس على نصيبه من ميراث الأب .

انقضى زمن الغُرف الكثيرة ومطلع الدرَج إلى السطح حيث غرف الخزين وصوامع الحَب ، والمضيفة فى الجهة البحرية انقضى زمانها ، بعد أن رُفعت بلاطات (الفراندة) واقتلعت أشجار التوت من جذورها . وانطمست معالم حظيرة الماشية وحظائر الطير من كل صنف .

دخلت شاهيناز من باب شقة لها ردهة رحيبة تفتح كل الأبواب عليها ، مرقت بين زحام أبناء الزوج الأول وحفدته ، تلم جسدها الطويل فى جلباب من الحرير الأسود ، وتلف وجهها بطرحة عليها نقش دقيق لزهور ملونة تضفى على وجهها جمالاً وصبا كأنها لم تفارق البيت القديم قط .

حضورها الرائع استعاد زمن الآباء الأول .

كم استنهض هذا الجمال نزوات الكهولة التى ولت .

رحل الجميع ، وبقيت شاهى بوضاءة بشرتها ، ونور وجهها المشع فى مواجهة مع شيخوخة الزوج الأول الذى لم يبق له من زمنه القديم غير عشقه لها . لو استقبل ما استدبر من أيامه . لو كان الأمر بيده لا بيد آب جبّار متكبر ، يريد أن يقول للولد كن فيكون لم يتحرر من سطوته أبدًا ، ولم يقدر يومًا على الفكاك من فلكه . حاول يومًا ، فترك العمل فى الطاحونة ، بعد أن أجبر على تطليق شاهى . وبلد تشيله وبلد تحطه . فالتقطته جماعة الإخوان المسلمين قالوا له : سنوفر لك وظيفة وزوجة .

ووفقوا فى ذلك عبر رجل يتبعهم ويعمل مديرًا فى شركة النقل العام ، وتم توزيعه كمحصل فى أتوبيس يعمل ما بين (سعود) و(الصالحية) .

سعد بهذه الوظيفة ، الآن صار بعيدًا عن مملكة الأب الطاغية ، وبعيدًا عن كل مكان يذكّره بشاهى . هنا البشر غير البشر ، واستغرقه العمل تمامًا حتى وقع فى غرام بدوية فائقة الجمال ، قرر الارتباط بها . وقد دلته على مضاربهم فى الجهة الصحراوية ، شرق (سعود) .

فى اليوم الذى قرر فيه الذهاب إلى شيخ القبيلة لطلب البنت منه، هبط درجات الأتوبيس فى المحطة النهائية ، ووجد أباه أمامه،

شل جسده تماما ، وكما يستسلم الفأر للقط مثل القــدر المحتــوم ، انتظر حتى اقترب منه . نظر إليه الأب بسخرية مشيرًا إلــى حلـة الشركة من فوق لتحت .

- أمن أجل هذا تركت العمل فى أملاكك ؟ هيا ..

واتجه دون أن ينطق بكلمــة نحــو نــاظر المحطــة ، سـلّمه (المانفيستو) عائدًا إلى والده .

- ارم هذه البدلة .

- سأرسلها إليهم مع زميل ، هدومى هناك فى (الصالحية) .

عاد إلى العمل بالطاحونة .

وعاد إلى غرفته ببيت العائلة مع زوجة جديــدة اختارهــا لــه (أبو المعاطى) .

تكررت محاولات الهروب ، والعودة ، دون فائدة ، طلاق جديد ، وزوجة جديدة ، وأولاد وبنات ، يُنقلون من الغرفة التى تخصه إلى المكان الذى هيئ لأبناء العائلة ، أسرَة كثيــرة ومســاحة واســعة تستوعب النسل الذى يحبو من غُرف الأب والأم إلى غُــرف أبنــاء وبنات العمومة .

وعلى الرغم مـن تجـــريبه مهنًـا كثيـرة ، إلا أن غرامـه بالطاحونة لا ينافس . يعود إليها فى كل مرة ، كما يعود العاشق إلى معشوقته.

غضبة مفاجئة مع الأب ، وتمرد محدود ، يؤدى إلى فرار مؤقت ودائمًا ما يصل الأب إلى مكانه ، مهما تخفى ، يجـره مـن يـده ، ويدفعه إلى زحام الزبائن ، يقضى المدة الموافقة لزواج جديـد مـا بين (القادوس) والفرَاكة وحجرة العدة . هنا ينسى العـالم كليـة ، يمضى أوقاته بين تكتكات الطاحونة وضربات الحديد بالحديد بمتعـة لا منازع لها .

وحين انقلب الزمان .

حاول تجريب السفر إلى بلاد العرب . لمـاذا لا يصـنع قرشـه بنفسه ؟

الفلاحون والصنايعية والأفندية كلهم عرفـوا طريـق المـوانئ والمطارات ، وصار للفلاح جواز سفر عليه أختام العـراق والأردن وليبيا والسعودية ، وهو ميكانيكى بارع ، يسـتطيع العمـل علـى ماكينات الماء التى تروى الصحراء الجافة .

والطاحونة .

الطاحونة تعانى حشرجات النهاية .

انتشار الطوابين والخبز الجاهز من كل صنف، حافظ على البقاء المهدد بالزوال ، لولا فراكة الأرز لانتهى زمانها ، وانقضت حقبها .

قال لأبيه : دعنى أجرب حظى كالآخرين .

ولم يمانع الأب (الأخوان الأصغر سنًا : أبو العلا ويونس لقيـا ربهما قبله) فلا حاجة إلى عين ترى ، ولا أذن تسمع ، عامل واحد يقــدر على إدارة الطاحونة ، وهو لا يريد تعطيــل ولــده الأكبــر ، ولا الوقوف عقبة فى طريقه .

- توكل .

وركب باخرة التغريبة .

المدهش أن الأب ظل يبكى على فراقه ، يتابع أحفاده ، ويتــردد على بيته مع قدوم الليل ، يمنح زوجته ما تحتاجــه مــن طلبــات الأبناء.

شهر لا يزيد ، ولا ينقص ، ووجده داخلاً عليه بحقيبة صــغيرة ينحنى على قدميْه ، ويقبل يديْه باكيًا بحرقة .

- عدت يا أبى .

- خراء فى عمرك ، لم تكمل الشهر .

- الطاحونة لم تفارق منامى أبدًا .

- عُد إليها لم تعد مجدية لك ، ولن تعاونك على تربية أولادك .

- أنا ورزقى على الله .

بعدها بأشهر قليلة رفع نعش الأب مع الرافعين . كـان يجعـر بأعلى صوت كطفل ضلَّ الطريق إلى أهله .

- ضعت من بعدك يابا .

لا خبرة له فى تخليص الأوراق الحكومية ، ولا قدرة لـه فـى حضور جلسات المحاكم ، ظل يتخبط من جدار إلى جـدار ، خبرتـه الوحيدة فى تشغيل الطاحونة .

ومتعته التى لا تعادلها متعة فى سماع أصواتها .

تتهدم أسوارها فلا يعيد تشييدها . تتآكل كل حوائطها فيتركهـا دون ترميم . ينقطع السير فيكتفى بترقيعه حتى لا يضـطر للـذهاب إلى القاهرة . والانفلات من عالمه المحدود .

صدأ على صدأ ، وانهيار يعقبه انهيار ، وهو يكتفـى بالـذهاب المبكر إليها ، يترك بيته صباحًا ، يقتعد المصـطبة يتلقـى شـعاع

الشمس الطالعة خلف البيوت ، ينتظر الزبون حتى وقت متأخر ، يديرها ساعة ، ساعتين ، حسب الكمية .

ثم يعود إلى بيته مع أول الليل ، لا يفارقه .

همدت رغبات الجسد ، وانسحبت الغرائز المستعرة إلى مكامنها، ورضى بما تمنحه له زوجته .

فى الصباح أراد القيام فلم يسعفه بدنه .

صرخ فيمن حوله : خذونى إليها .

قالوا له : استرح .. لا طاقة لك للعمل .

– خذونى إليها .

رفعوا جسده الهزيل إلى هناك ، أجلسوه على المصطبة يتابع بعين كليلة حركة الناس من حوله .

– ألف سلامة عليك يا أسطى .

لا يرد . يحدّق فيمن يطلب له السلامة بكراهية .

– سلامة أمك .. أنا حديد يا ولد .

– إن شاء الله حديد على طول .

- قل لأمك إذا كان عندها طحين فسنبدأ بعد الظهر مباشرة .

في الصباح التالي أراد القيام ، فعجز تمامًا .

- خذوني .

- لا يمكن .

- الصداع سيفجّر رأسي .

- سنسجل لك صوتها ، ونتابعها على قدر المستطاع .

- سيهرب الزبون ؛ إنه يأتي من أجلي .

وذهبوا بمسجِّلة إلى غرفة العِدة ، ثم حاولوا التقاط الأصوات من غرفة الطحن ، والفرّاكة ، وتركوا السماعات مفتوحة على الشارع حتى يعايش اللحظة كما هي ، وعادوا إليه .

كان غافيا .. لا ينتبه لمن حوله .

ضغط أحدهم على الزر فاستعادت المسجلة الأصوات الحميمة ، جلسوا حوله يرقبونه ، بدأت الحركة تحت الجفنيْن . المُقلتان كانتا تتقلبان بعنف كأنهما تستعيدان مشاهد عمره الذي ولّى ، ثم فتح الجفنين رويدًا رويدًا ، والصور الغائمة بدأت تتضح وتتخذ لنفسها

مجسدات واضحة حرك الرأس على الوسادة ، ووجد في جسده القدرة على النهوض .

فأقبلوا عليه يمهدون له الجلسة .

جعلوا الوسائد خلف ظهره ، ثم رُفع من الكتفيْن .

جعل الساق على الساق ، ورشف بأنفه رشفة قوية . كان ينتشى بالأصوات المنطلقة من المسجلة ، تحرك لسانه الثقيل بحديث غامض إلى الراحلين ، الأب ، والأعمام وزبائن الطاحونة من أهل (الجزيرة) و (طناح) .

ثم رأى نفسه يسعى على ممشى ممهد بالحصى الصغير الملون. كان يسير في الظلمة على ونس الترتيل ، والأضواء المتناثرة من ثريا يلمع كريستالها فوق رؤوس تعتمر طرابيش حمراء ، الوجوه مطموسة الملامح ، أجساد ضخمة ورؤوس مطربشة ، فاقعة الحمرة .

لا وجه هناك يعرفه حتى انبثق نورها من ظلمة الأسوار العالية. أسرع إليها ليتأكد من وجودها . كانت هى . وجه أبيض مستدير بعينيْن مهللتيْن ببهجة ، لا عهد له بها ، مدت إليه يدًا ملائكية دافئة استجاب لها ، وسار وراءها تحت السور وبين كثافة الأشجار السامقة .

ثم صعد درجًا ضيقًا يفضى إلى هواء الحقــول ونــور القمــر ، فتنفس بشدة ، وفرد ذراعيْه علــى آخرهمــا ليستنشــق المزيــد ، ودخلت هى بين الذراعيْن المفرودتيْن ، نامت على صدره بوداعة ، فشعر بالنمل الصاعد إلى أطرافه ، وبالذراعيْن تسقطان إلى جنبيْــه دون إرادة منه ، كان يبكى وهى قابضة على خاصرتيْه ، واســتحال إلى خيال مآتة ، بلا روح .



صمت الطواحين

لم أرها فى أول الأمر بل نشق أنفى عطرها فانتبهت من غفوتى. كانت تركع على الأرض، وتلقى سحائب شعرها الأسود على حافة الفراش. قلت لها بولهٍ: شاهى .. أنت هنا؟

سحبتنى من يدى لتخرج من عتمة حجرتى، كنت أشعر أن شخصًا ما يشاركنى الغرفة، أسمع همس أنفاسه فى ركن بعيد، ولا أراه. مرقنا من باب الحجرة المتواضعة، كنت أهمس فى أذنها: كيف لبنت القصور!!

فوضعت إصبعين على فمى.

الطاحونة ساكنة، والقمر يتستر خلف سُحب خريفية هشة، يطل علينا بنصف عين. قالت: أحبك. قلت وأنا مخنوق بالبكاء: وأنا أعبدك.

– أنت فارسى.

– وأنت أميرتى.

– خذنى بعيدًا عن بؤس العائلة التى انمحى زمانها.

وارتميت فى حضنها فلم ألمس شيئًا مجسدًا.

قلت: هل هى بهذه الخفة.

حاولت مرة أخرى، فطارت كفراشة تحوم فى فناء الطاحونة.

قلت لها: عودى كإنسية .. لا أريد أن أرى تحولاتك.

دارت حولى وأنا أثب للإمساك بها ، حين أفلحت فى الإمساك بها اس حمامة بيضاء، ضربت بجناحيها الهواء، ارتفعت ثم هبطت، اقتربت فار وقفت هناك لا تريد الهبوط، وأنا أنادى باسمها .. أنادى باسمها وهى الصغير، ولا تجيب، ثم ضربت الهواء ضربتين واختفت.

الغلاف: أحمد اللباد



